٥٦١
ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة

ذكر فتح المُنيطِرة من بلد الفرنج

في هذه السنة فتح نور الدين محمود بن زنكي حصن المُنيطرة[(١)] من الشام، وكان بيد الفرنج، ولم يحشد له، ولا جمع عساكره، وإنّما سار إليه جريدة على غِرة منهم، وعلم أنّه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا، وانتهز الفرصة وسار إلى المُنيطِرة وحصره، وجدّ في قتاله، فأخذه عنوةً وقهراً، وقتل من بها وسبَى، وغنم غنيمة كثيرة، فإنّ الذين به كانوا آمنين، فأخذتهم خيل الله بغتةً وهم لا يشعرون، ولم يجتمع الفرنج لدفعه إلاّ وقد ملكه، ولو علموا أنّه جريدةً في قِلّة من العساكر لأسرعوا إليه، إنّما ظنّوه أنه في جَمْعٍ كثير، فلمّا ملكه تفرّقوا وأيسُوا من ردّه[(٢)].

ذكر قتل خطلبرس مقطع واسط

في هذه السنة قُتل خطلبرس مُقْطَع واسط، قتله ابن أخي شملة صاحب خوزستان.

وسبب ذلك أنّ ابن سَنكا، وهو ابن أخي شملة، كان قد صاهر منكوبرس مُقْطَع

---

(١) المُنَيْطِرَة: بضم الميم وفتح النون وسكون الياء المنقوطة باثنتين من تحتها، وكسر الطاء المهملة، وفتح الراء، وفي آخره هاء حصن بجبل لبنان. قال ياقوت: قريب من طرابلس. (معجم البلدان). وأقول: هو بين بعلبك وجبيل في جبل المنيطرة المعروف باسمه في القسم الشمالي من إقليم كسروان.

(٢) انظر عن (المنيطرة) في النوادر السلطانية ٣٨، والتاريخ الباهر ١٣١، والروضتين ج ٢ ق ٢/ ٣٦٠ ـ ٣٦٧ و٣٦٨، وزبدة الحلب ٢/ ٣٢٢، ووفيات الأعيان ٧/ ٤٧، والمغرب في حلى المغرب ١٣٩، والكواكب الدرية ١٦٩، والإعلام بتاريخ أهل الإسلام لابن قاضي شهبة (مخطوط) ١١/ ١٦٩، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٦١ هـ) ص ٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٣، ودول الإسلام ٢/ ٧٥، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٥١، والإعلام والتبيين ٢٩، وتاريخ طرابلس (تأليفنا) ج١/ ٥٩٤.

البصرة، فاتّفق أن المستنجد بالله قتل منكوبرس سنة تسع[1] وخمسين وخمسمائة، فلمّا قُتل قصد ابن سنكا البصرة ونهب قُراها، فأرسل من بغداد إلى كَمَشْتكِين، صاحب البصرة، بمحاربة ابن سنكا، فقال: أنا عامل لستُ بصاحب جيش؛ يعني أنّه ضامن لا يقدر على إقامة عسكر، فطمع ابن سنكا، وأصعد إلى واسط، ونهب سوادها، فجمع خطلبرس مقطعها جمعاً وخرج إلى قتاله.

وكاتب ابن سنكا الأمراء الذين مع خطلبرس، فاستمالهم ثمّ قاتلهم فانهزم عسكره فقتله، وأخذ ابن سنكا علم خطلبرس فنصبه، فلما رآه أصحابه ظنّوه باقياً، فجعلوا يعودون إليه، وكلّ من رجع أخذه ابن سنكا فقتله أو أسره.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة خرج الكُرج في جَمْعٍ كثير وأغاروا على بلدان، حتى بلغوا كنَجَة، فقتلوا وأسروا وسبوا كثيراً ونهبوا ما لا يُحصى[2].

[الوفيات]

وفيها تُوفّي الحسن بن العباس بن رستم أبو عبد الله الأصفهانيّ الرُستميّ[3]، الشيخ الصالح، وهو مشهور يروي عن أحمد بن خَلف، وغيره.

وفيها، في ربيع الآخر، توفي الشيخ عبد القادر بن أبي صالح أبو محمّد الجيليّ المقيم ببغداد، ومولده سنة سبعين وأربعمائة، وكان من الصلاح على حالةٍ كبيرة، وهو حَنْبَليّ المذهب، ومدرسته ورباطه مشهوران ببغداد.

---

(١) في (أ): «سبع».

(٢) الخبر من (أ) وهو في العبر ٤/ ١٧٤، ودول الإسلام ٢/ ٧٥، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٦١ هـ) ص ٥.

(٣) انظر عن (الرستمي) في: تاريخ الإسلام (٥٦١ ـ ٥٧٠) رقم الترجمة ٩، والأنساب ٦/ ١١٥ ـ ١١٧، والمنتظم ١٠/ ٢١٩ رقم ٣٠٧.

٥٦٢
ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة

ذكر عود أسد الدين شِيركُوه إلى مصر

قد ذكرنا سنة تسع وخمسين وخمسمائة مسير أسد الدين شِيركوه إلى مصر، وما كان منه، وقفوله إلى الشام، فلمّا وصل إلى الشام أقام على حاله في خدمة نور الدين إلى الآن.

وكان بعد عوده منها لا يزال يتحدّث بها وبقصْدها، وكان عنده من الحرص على ذلك كثير، فلمّا كان هذه السنة تجهّز وسار في ربيع الآخر في جيش قويّ، وسيّر معه نور الدين جماعة من الأمراء، فبلغت عدّتهم ألفَيْ فارس، وكان كارهاً لذلك، ولكن لمّا رأى جدّ أسد الدّين في المسير لم يمكنه إلا أن يسير معه جمْعاً خوفاً من حادثٍ يتجدّد عليهم فيضعف الإسلام، فلمّا اجتمع معه عسكره سار إلى مصر على البرّ، وترك بلاد الفرنج على يمينه، فوصل الدّيار المصريّة، فقصد اطفيح، وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربيّ، ونزل بالجيزة مقابل مصر، وتصرّف في البلاد الغربيّة، وحكم عليها، وأقام نيفاً وخمسين يوماً.

وكان شاور لمّا بلغه مجيء أسد الدين إليهم قد أرسل إلى الفرنج يستنجدهم، فأتوه على الصَّعْب والذّلول، طمعاً في ملكها، وخوفاً أن يملكها أسد الدّين فلا يبقى لهم في بلادهم مقام معه ومع نور الدّين، فالرجاء يقودهم، والخوف يسوقهم؛ فلمّا وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربيّ، وكان أسد الدين وعساكره قد ساروا إلى الصعيد، فبلغ مكاناً يُعرف بالبابَين، وسارت العساكر المصريّة والفرنج وراءه، فأدركوه بها الخامس والعشرين من جُمادى الآخرة، وكان أرسل إلى المصريّين والفرنج جوّاسين، فعادوا إليه وأخبروه بكثرة عَددهم وعُددهم، وجدّهم في طلبه، فعزم على قتالهم، إلاّ أنه خاف من أصحابه أن تضعُف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطر الذي عطبهم فيه أقرب من سلامتهم، لقلّة عددهم وبُعدهم عن أوطانهم وبلادهم،

وخطر الطريق، فاستشارهم، فكلّهم أشاروا عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقيّ والعود إلى الشام، وقالوا له: إن نحن انهزمنا، وهو الذي يغلب على الظنّ، فإلى أين نلتجيء، وبمَن نحتمي، وكلّ من في هذه الدّيار من جنديّ وعاميّ وفلاح عدوّ لنا؟

فقام أمير من مماليك نور الدّين يقال له شرف الدّين بزغُش، صاحب شقيف[1]، وكان شجاعاً، وقال: من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون في بيته مع امرأته، والله لئن عُدنا إلى نور الدين من غير غَلَبَة ولا بلاء نُعذر فيه ليأخذنّ ما لنا من أقطاع وجامكيّة، وليعودنّ علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه إلى يومنا هذا ويقول: تأخذون أموال المسلمين وتفرّون عن عدوّهم، وتُسلّمون مثل مصر إلى الكفّار! والحقّ بيده.

فقال أسد الدّين: هذا الرأي، وبه أعمل؛ وقال ابن أخيه صلاح الدّين مثله، وكثُر الموافقون لهم، واجتمعت الكلمة على القتال، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبئة، وجعل الأثقال في القلب يتكثّر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد، وجعل صلاح الدين في القلب، وقال له ولمن معه: إنّ المصريّين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب ظناً منهم أنّي فيه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال، ولا تُهلكوا نفوسكم، واندفعوا بين أيديهم فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم.

واختار هو من شجعان عسكره جمعاً يثق بهم ويعرف صبرهم في الحرب، ووقف بهم في الميمنة، فلمّا تقاتل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره، وحملوا على القلب، فقاتلهم من به قتالاً يسيراً، وانهزموا بين أيديهم غير متفرّقين وتبِعهم الفرنج، فحمل حينئذٍ أسد الدين فيمن معه على من تخلّف عن الذين حملوا من المسلمين والفرنج الفارس والراجل، فهزمهم، ووضع السيف فيهم، فأثخن وأكثر القتل والأسر، فلمّا عاد الفرنج من المنهزمين رأوا عسكرهم مهزوماً، والأرض منهم قفراً، فانهزموا أيضاً، وكان هذا من أعجب ما يؤرّخ أنّ ألفَيْ فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل[2].

---

(١) شقيف: هو شقيف تيرون، حصن بجبل عامل شرقي مدينة صور.

(٢) التاريخ الباهر ١٣٢ ـ ١٣٣، النوادر السلطانية ٣٧ ـ ٣٨، زبدة الحلب ٣٢٣/٢، ٣٢٤، الروضتين =

ذكر مُلك أسد الدين الإسكندريّة وعوده إلى الشام

لما انهزم المصريّون والفرنج من أسد الدين بالبابين سار إلى ثغر الإسكندريّة وجبَى ما في القُرى على طريقه من الأموال، ووصل إلى الإسكندريّة، فتسلّمها بمساعدة من أهلها سلّموها إليه، فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد إلى الصعيد فملكه وجبَى أمواله، وأقام به حتى صام رمضان.

وأما المصريّون والفرنج فإنهم عادوا واجتمعوا على القاهرة، وأصلحوا حال عساكرهم، وجمعوا وساروا إلى الإسكندريّة، فحصروا صلاح الدّين بها، واشتدّ الحصار، وقلّ الطعام على من بها، فصبر أهلها على ذلك، وسار أسد الدين من الصعيد إليهم، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، فوصل رسل الفرنج والمصريّين يطلبون الصلح، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجابهم إلى ذلك وشرط [على] الفرنج أن لا يقيموا بالبلاد ولا يتملّكوا منها قرية واحدة، فأجابوا إلى ذلك، واصطلحوا وعاد إلى الشام، وتسلّم المصريّون الإسكندريّة في نصف شوّال، ووصل شيركوه إلى دمشق ثامن عشر ذي القعدة.

وأما الفرنج فإنّهم استقرّ بينهم وبين المصريّين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدّين من إنفاذ عسكر إليهم، ويكون لهم من دَخْل مصر كلّ سنة مائة ألف دينار. هذا كلّه استقرّ مع شاور، فإنّ العاضد لم يكن له معه حكم [لأنّه] قد حجر عليه وحجبه عن الأمور كلّها، وعاد الفرنج إلى بلادهم بالساحل الشاميّ، وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم[1].

وكان الكامل شجاع بن شاور قد أرسل إلى نور الدين مع بعض الأمراء ينهي

= ج ١ ق ٢/ ٣٦٥، تاريخ الزمان ١٧٨ ـ ١٧٩، أخبار الدول المنقطعة ١١٥، مفرّج الكروب ١/ ١٥٢، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٣ ـ ٤٤، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٣٥ ـ ٣٣٧، مرآة الزمان ج ٨ ق ٢/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩، دول الإسلام ٢/ ٦٧ العبر ٤/ ١٧٦ ـ ١٧٧، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٢ هـ) ص ٨، ٩ تاريخ ابن الوردي ٢/ ٧٢، مرآة الجنان ٣/ ٣٧٠، البداية والنهاية ١٢/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣، الكواكب الدرية ١٦٩ ـ ١٧١، إتعاظ الحنفا ٣/ ٢٨٢ ـ ٢٨٥، تاريخ ابن سباط ١/ ١١٧.

(١) التاريخ الباهر ١٣٤، مرآة الزمان ج ٨ ق ٢/ ٢٦٩، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٤، العبر ٤/ ١٧٧، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٢ هـ) ص ٩ ـ ١٠، مرآة الجنان ٣/ ٣٧٠، البداية والنهاية ١٢/ ٢٥٣، إتعاظ الحنفا ٣/ ٢٨٧، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٤٩.

محبّته وولاءه، ويسأله الدخول في طاعته، وضمن على نفسه أنّه يفعل هذا ويجمع الكلمة بمصر على طاعته، وبذل مالاً يحمله كلّ سنة، فأجابه إلى ذلك، وحمل إليه مالاً جزيلاً، فبقي الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر سنة أربعٍ وستّين وخمسمائة، فكان ما نذكره هناك إن شاء الله تعالى.

ذكر مُلك نور الدين صافيثا وعُرَيمة

في هذه السنة جمع نور الدين العساكر، فسار إليه أخوه قُطب الدين من الموصل وغيره، فاجتمعوا على حمص، فدخل نور الدين بالعساكر بلاد الفرنج، فاجتازوا على حصن الأكراد، فأغاروا ونهبوا وقصدوا عِرْقَة فنازلوها وحصروها وحصروا حَلْبَة[1] وأخذوها وخرّبوها، وسارت عساكر المسلمين في بلادهم يميناً وشمالاً تُغير وتخرب البلاد، وفتحوا العُرَيمَة وصافيثا، وعادوا إلى حمص فصاموا بها رمضان.

ثمّ ساروا إلى بانياس[2]، وقصدوا حصن هُونِين[3]، وهو للفرنج أيضاً، من أمنع حصونهم ومعاقلهم، فانهزم الفرنج عنه وأحرقوه، فوصل نور الدين من الغد فهدم سوره جميعه، وأراد الدخول إلى بيروت، فتجدّد في العسكر خُلف أوجب التفرّق، فعاد قُطب الدّين إلى الموصل، وأعطاه نور الدين مدينة الرَّقة على الفرات، وكانت له، فأخذها في طريقه وعاد إلى الموصل[4].

ذكر قصد ابن سنكا البصرة

في هذه السنة عاد ابن سنكا فقصد البصرة، ونهب بلدها وخرّبه من الجهة الشرقيّة، وسار إلى مطارا، فخرج إليه كمشتَكين، صاحب البصرة، وواقعه واقتتلوا قتالاً صبر فيه الفريقان ثم انهزم كمشتكين إلى واسط فاجتمع بشرف الدين أبي جعفر بن البلديّ الناظر فيها، ومعهما مقطعهما أرغش، واتّصلت الأخبار بأنّ ابن سنكا واصلٌ إلى واسط، فخاف الناس منه خوفاً شديداً، فلم يصل إليها.

---

(١) في (أ): «جبلة» والمثبت هو الصحيح. وهي «حلبا» حالياً، مركز قضاء عكار شمالي شرقي طرابلس.
(٢) في الجولان.
(٣) بجبل عامل شرقي صور.
(٤) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٢ هـ) ص ٧.

ذكر قصد شُملة العراق

في هذه السنة وصل شُملة صاحب خوزستان إلى قلعة الماهكي، من أعمال بغداد، وأرسل إلى الخليفة المستنجد بالله يطلب شيئاً من البلاد، ويشتطّ في الطلب، فسيّر الخليفة أكثر عساكره إليه ليمنعوه، وأرسل إليه يوسف الدمشقيّ يلومه ويحذّره عاقبة فعله، فاعتذر بأن إيلدكز والسلطان أرسلان شاه أقطعا الملك الذي عنده، وهو ولد ملكشاه، البصرة وواسط والحِلّة، وعرض التوقيع بذلك، وقال: أنا أقنع بثلث ذلك؛ فعاد الدمشقيّ بذلك، فأمر الخليفة بلعنه، وأنّه من الخوارج، وجُمعت العساكر وسُيّرت إلى أرغش المسترشديّ، وكان بالنعمانيّة هو وشرف الدين أبو جعفر بن البلديّ، ناظر واسط، مقابل شملة.

ثم إن شُملة أرسل قَلج ابن أخيه في طائفة من العسكر لقتال طائفة من الأكراد، فركب أرغش في بعض العسكر الذي عنده وسار إلى قِلج فحاربه، فأسر قِلج وبعض أصحابه وسيّرهم إلى بغداد، وبلغ شملة، وطلب الصلح، فلم تقع الإجابة إليه، ثمّ إنّ أرغش سقط عن فرسه بعد الوقعة فمات وبقي شملة مقيماً مقابل عسكر الخليفة، فلمّا علم أنّه لا قدرة له عليهم رحل وعاد إلى بلاده، وكانت مدّة سفره أربعة أشهر(١).

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة عصى غازي بن حسّان المنبجيّ على نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام، وكان نور الدين قد أقطعه مدينة مَنبج، فامتنع عليه فيها، فسيّر إليهم عسكراً فحصروه وأخذوها منه، وأقطعها نور الدين أخاه قُطب الدين ينال بن حسّان، وكان عادلاً، خيّراً، محسناً إلى الرعيّة، جميل السيرة، فبقي فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيّوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة(٢).

[الوفيات]

وفيها تُوفّي فخر الدين قُرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن

---

(١) المنتظم ١٠/ ٢٢٠ (١٨/ ١٧٤)، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٢ هـ) ص ٧.

(٢) الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ١/ ٩٥ و١٠٦ و١١٣ و١١٤، مفرّج الكروب ١/ ١١٠ ـ ١١١، التاريخ الباهر ١٣٤ ـ ١٣٥.

كيفا وأكثر ديار بكر، ولما اشتد مرضه أرسل إلى نور الدين محمود، صاحب الشام، يقول له: بيننا صُحبة في جهاد الكفّار أريد أن ترعى بها ولدي؛ ثمّ تُوفيّ، وملك بعده ولده نور الدين محمّد، فقام نور الدين الشاميّ بنصرته والذَّبّ عنه، بحيث أنّ أخاه قَطْب الدّين مودوداً، صاحب الموصل، أراد قصد بلاده، فأرسل إليه أخوه نور الدّين يمنعه، ويقول له: إن قصدتَه أو تعرّضتَ إلى بلاده منعتُك قهراً؛ فامتنع من قصده.

وفيها تُوفيّ أبو المعالي محمّد بن الحسين بن حمدون الكاتب ببغداد، وكان على ديوان الزمام، فقُبض عليه فمات محبوساً.

وفيها تُوفي قَماج المسترشدي ولد الأمير يزدن، وهو من أكابر الأمراء ببغداد.

٥٦٣

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة

ذكر فراق زين الدين الموصل وتحكّم قُطب الدين في البلاد

في هذه السنة فارق زين الدين عليُّ بن بَكتَكِين[١]، النائب عن قُطب الدين مودود بن زنكي، صاحب الموصل، خدمة صاحبه بالموصل، وسار إلى إربِل، وكان هو الحاكم في الدولة، وأكثر البلاد بيده، منها إربل، وفيها بيته وأولاده وخزائنه، ومنها شَهرَزُور وجميع القلاع التي معها، وجميع بلد الهَكّاريّة وقلاعه، منها العِمادِيّة وغيرها، وبلد الحَميديّة، وتكريت، وسِنجار، وحرّان، وقلعة الموصل هو بها، وكان قد أصابه طرَش وعمى أيضاً، فلمّا عزم على مفارقة الموصل إلى بيته بإربل سلّم جميع ما كان بيده من البلاد إلى قُطْب الدين مودود، وبقي معه إربل حسبُ.

وكان شجاعاً، عاقلاً، عادلاً، حسن السيرة، سليم القلب، ميمون النّقيبة، لم ينهزم من حرب قطّ، وكان كريماً كثير العطاء للجُند وغيرهم، مدحه الحِيص بِيص بقصيدة، فلما أراد أن ينشده قال: أنا لا أعرف ما يقول، ولكنّي أعلم أنّه يريد شيئاً؛ فأمر له بخمسمائة دينار وفرس وخِلعة وثياب مجموع ذلك ألف دينار، ولم يزل بإربل إلى أن مات بها بهذه السنة.

ولمّا[٢] فارق زين الدّين قلعة الموصل سلّمها قُطب الدين إلى فخر الدين عبد المسيح، وحكّمه في البلاد، فعمر القلعة، وكانت خراباً لأنّ زين الدّين كان قليل الالتفات إلى العمارة، وسار عبد المسيح سيرةً سديدة وسياسة عظيمة، وهو خصيّ أبيض من مماليك زنكي أتابك عماد الدّين[٣].

---

(١) في (أ): «بلتكين».

(٢) من (أ).

(٣) التاريخ الباهر ١٣٥ ـ ١٣٦.

ذكر الحرب بين البهلوان وصاحب مَراغة

في هذه السنة أرسل آقسنْقر الأحمديلي، صاحب مراغة، إلى بغداد يسأل أن يُخطب للملك الذي هو عنده، وهو ولد السلطان محمّد شاه، ويبذل أنه لا يطأ أرض العراق، ولا يطلب شيئاً غير ذلك، وبذل مالاً يحمله إذا أجيب إلى ما التمسه، فأجيب بتطييب قلبه.

وبلغ الخبر إيلدكز صاحب البلاد، فساءه ذلك، وجهّز عسكراً كثيفاً، وجعل المقدّم عليهم ابنه البهلوان، وسيّرهم إلى آقسنقر، فوقعت بينهم حربٌ أجلت عن هزيمة آقسنقر وتحصّنه بمراغة. ونازله البهلوان بها وحصره وضيّق عليه. ثمّ تردّدت الرسل بينهم، فاصطلحوا، وعاد البهلوان إلى أبيه بهَمَذان[1].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة استوزر الخليفة المستنجد بالله شرفَ الدّين أبا جعفر أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدي، وكان ناظراً بواسط أبان في ولايتها عن كفايةٍ عظيمة، فأحضره الخليفة واستوزره، وكان عضُد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء قد تحكّم تحكُّماً عظيماً، فتقدّم الخليفة إلى ابن البلديّ بكفّ يده وأيدي أهله وأصحابه، ففعل ذلك ووكّل بتاج الدين أخي أستاذ الدار، وطالبه بحساب نهر الملك، لأنّه كان يتولاّه من أيام المقتفي، وكذلك فعل بغيره، فحصّل بذلك أموالاً جمّة، وخافه أستاذ الدار على نفسه، فحمل مالاً كثيراً[2].

[الوفيات]

وفي هذه السنة تُوفّي عبد الكريم بن محمد بن منصور أبو سعد بن أبي بكر ابن أبي المظفّر السمعانيّ المَرْوَزيّ، الفقيه الشافعيّ، وكان مكثراً من سماع الحديث، سافر في طلبه وسمع منه ما لم يسمعه غيره، ورحل إلى ما وراء النهر وخُراسان دفعات، ودخل إلى بلد الجبل، وأصفهان، والعراق، والموصل، والجزيرة، والشام، وغير

---

(١) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٣ هـ) ص ١١.

(٢) المنتظم ١٠/ ٢٢٢ (١٨/ ١٧٦)، الفخري ٣١٧ وفيه اسم الوزير «محمد»، مختصر التاريخ لابن الكازروني ٢٣٦، خلاصة الذهب المسبوك للإربلي ٢٧٨، البداية والنهاية ١٢/ ٢٥٤.

ذلك من البلاد، وله التصانيف المشهورة منها: «ذيل تاريخ بغداد»، و«تاريخ مدينة مَرْو»، وكتاب «النسب»، وغير ذلك، أحسن فيها ما شاء، وقد جمع مشيخته فزادت عدّتهم على أربعة آلاف شيخ، وقد ذكره أبو الفرج بن الجوْزيّ فقطعه.

فمن جملة قوله فيه أنّه كان يأخذ الشيخ ببغداد ويعبر به إلى فوق نهر عيسى فيقول: حدّثني فلان بما وراء النهر، وهذا باردٌ جدّاً، فإنّ الرجل سافر إلى ما وراء النهر حقّاً، وسمع في عامّة بلاده من عامّة شيوخه، فأيّ حاجة به إلى هذا التلبيس البارد؟ وإنما ذنبه عند ابن الجوزيّ أنّه شافعيّ، وله أسوة بغيره، فإنّ ابن الجوزيّ لم يُبقِ على أحد إلاّ مكسري الحَنَابلة.

وفيها تُوفيّ قاضي القضاة أبو البركات جعفر بن عبد الواحد الثقفيّ في جُمادى الآخرة.

وفيها تُوفيّ يوسف الدمشقيّ مدرّس النظاميّة بخوزستان، وكان قد سار رسولاً إلى شملة.

وفيها تُوفيّ الشيخ أبو النجيب الشّهْرَزُوريّ الصوفيّ الفقيه، وكان من الصالحين المشهورين، ودُفن ببغداد.

٥٦٤
ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

ذكر مُلك نور الدين قلعة جَعْبَر

في هذه السنة ملك نور الدين محمود بن زنكي قلعة جَعْبَر، أخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن عليّ بن مالك العُقيليّ، وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيّام السلطان ملكشاه، وقد تقدّم ذِكر ذلك، وهي من أمنع القلاع وأحصنها مُطِلّة على الفرات[١] من الجانب الشرقيّ.

وأما سبب مُلكها، فإنّ صاحبها نزل منها يتصيّد، فأخذه بنو كلاب وحملوه إلى نور الدين في رجب سنة ثلاثٍ وستين، فاعتقله وأحسن إليه، ورغبه في الإقطاع والمال ليسلّم إليه القلعة، فلم يفعل، فعدل إلى الشدّة[٢] والعنف، وتهدّده[٣]، فلم يفعل، فسيّر إليها نور الدين عسكراً مقدّمه الأمير فخر الدين مسعود بن أبي علي الزّعفرانيّ، فحصرها مدّة، فلم يظفر منها بشيء، فأمدّهم بعسكر آخر، وجعل على الجميع الأمير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الدّاية، وهو رضيع نور الدين، وأكبر أمرائه، فحصرها أيضاً فلم ير له فيها مطمعاً، فسلك مع صاحبها طريق اللّين، وأشار عليه أن يأخذ من نور الدين العوض ولا يخاطر في حِفْظها بنفسه، فقبل قوله وسلّمها، فأخذ عوضاً عنها سَرُوج وأعمالها والمَلاّحة التي بين بلد حلب[٤] وباب بُزاعة، وعشرين ألف دينار معجّلة، وهذا إقطاع عظيم جدّاً، إلاّ أنه لا حصْنَ فيه.

وهذا آخر أمر بني مالك بالقلعة ولكلّ أمر أمَدٌ ولكلّ ولاية نهاية. بلغني أنّه قيل

---

(١) في الأوربية: «الفراة».

(٢) في (أ): «فأخذها بالشدة».

(٣) زاد في (أ): «وتوعده».

(٤) في (أ): «التي في حلب».

لصاحبها: أيما أحبّ إليك وأحسن مقاماً، سروج والشام أم القلعة؟ فقال: هذه أكثر مالاً، وأما العزّ ففارقناه بالقلعة(١).

ذكر ملك أسد الدين مصر وقتل شاور

في هذه السنة، في ربيع الأول، سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى ديار مصر، فملكها، ومعه العساكر النّوريّة.

وسبب ذلك ما ذكرناه من تمكّن الفرنج من البلاد المصريّة، وأنّهم جعلوا لهم في القاهرة شِحنةً وتسلّموا أبوابها، وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم، وحكموا على المسلمين حكماً جائراً، وركبوهم بالأذى العظيم، فلمّا رأوا ذلك، وأنّ البلاد ليس فيها من يردّهم، أرسلوا إلى ملك الفرنج بالشام، وهو مُرّي(٢) ولم يكن للفرنج مذ ظهر بالشام مثله شجاعةً ومكراً ودهاء، يستدعونه ليملكها، وأعلموه خلوّها من مُمانع، وهوّنوا أمرَها عليه، فلم يُجِبهم إلى ذلك، فاجتمع إليه فرسان الفرنج وذوو الرأي منهم، وأشاروا عليه بقصدها وتملّكها، فقال لهم: الرأي عندي أنّنا لا نقصدها، فإنّها طعمة لنا، وأموالها تُساق إلينا، نتقوّى(٣) بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لنملكها فإنّ صاحبها وعساكره، وعامّة بلاده وفلاحيها، لا يسلّمونها إلينا، ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منّا على تسليمها إلى نور الدين، ولئن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين، فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام؛ فلم يقبلوا قوله، وقالوا له: إنّها لا مانع فيها ولا حامي، وإلى أن يتجهّز عسكر نور الدين، ويسير إليها، نكون نحن قد ملكناها، وفرغنا من أمرها، وحينئذٍ يتمنّى نور الدين منّا السلامة.

فسار معهم على كرهٍ وشرعوا يتجهّزون ويُظهرون أنهم يريدون قصد مدينة حمص؛ فلما سمع نور الدّين شرع أيضاً يجمع عساكره، وأمرهم بالقدوم عليه، وجدّ

---

(١) التاريخ الباهر ١٣٦ ـ ١٣٧، الروضتين ج ١ ق ٣/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧، زبدة الحلب ٢/ ٣٢٥، تاريخ الزمان ١٨٠، تاريخ مختصر الدول ٢١٢، الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ١/ ١٠٧ و١١٥، الدر المطلوب ٤٠، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٤ ـ ٤٥، نهاية الأرب ٢٧/ ١٦٢، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٦٣، الكواكب الدرية ١٧٤، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٤٨، تاريخ ابن سباط ١/ ١١٩.

(٢) في (أ): «مري».

(٣) في الأوربية: «تتقوى».

الفرنج في السير إلى مصر، فقدموها، ونازلوا مدينة بلبِيس، وملكوها قهراً مُستهلّ صفر، ونهبوها وقتلوا فيها وأسروا وسبَوا.

وكان جماعةٌ من أعيان المصريّين قد كاتبوا الفرنج، ووعدوهم النصرة عداوةً منهم لشاور، منهم ابن الخيّاط، وابن فَرْجَلة[1]، فقوي جَنان الفَرنج، وساروا من بِلبِيس إلى مصر، فنزلوا إلى القاهرة عاشر صفر وحصروها، فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم كما فعلوا بأهل بِلبِيس، فحملهم الخوف منهم على الامتناع، فحفظوا البلد، وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه، فلو أنّ الفرنج أحسنوا السّيرة في بِلبِيس لملكوا مصر والقاهرة، ولكنّ الله تعالى حسّن لهم ما فعلوا ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وأمر شاور بإحراق مدينة مصر تاسع صفر، وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، وأن يُنهب البلد، فانتقلوا، وبقوا على الطرق، ونُهبت المدينة وافتقر أهلها، وذهبت أموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنج عليهم بيوم، خوفاً أن يملكها الفرنج، فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً.

وأرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يستغيث به، ويعرّفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهنّ من الفرنج؛ فشرع في تسيير الجيوش.

وأمّا الفرنج فإنّهم اشتدّوا في حصار القاهرة وضيّقوا على أهلها، وشاور هو المتولّي للأمر والعساكر والقتال، فضاق به الأمر، وضعُف عن ردّهم، فأخلد إلى إعمال الحيلة، فأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودّته ومحبّته القديمة له، وأنّ هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد، وإنّما المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه، ويشير بالصلح، وأخذ مال لئلا يتسلّم البلاد نور الدين، فأجابه إلى ذلك على أن يعطوه ألف ألف دينار مصريّة، يعجّل البعض، ويمهل بالبعض، فاستقرّت القاعدة على ذلك[2].

---

(١) في (أ): «قرحلة».

(٢) التاريخ الباهر ١٣٧ ـ ١٣٨، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٣٣٥ ـ ٣٣٧، أخبار الدول المنقطعة ١١٦، سنا البرق الشامي ١/ ٧٤، المغرب في حلى المغرب ٩٥ ـ ٩٦، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٧، تاريخ =

ورأى الفرنج أن البلاد قد امتنعت عليهم[1] وربّما سُلّمت إلى نور الدين، فأجابوا كارهين، وقالوا: نأخذ المال فنتقوّى به، ونعاود البلاد بقوّة لا نبالي معها بنور الدين ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾[2] فعجّل لهم شاور مائة ألف دينار، وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال[3]، فرحلوا قريباً، وجعل شاور يجمع لهم المال من أهل القاهرة ومصر، فلم يتحصّل له إلاّ قدرٌ لا يبلغ خمسة آلاف دينار، وسببه أنّ أهل مصر كانوا قد احترقت دورهم وما فيها، وما سلم نُهب، وهم لا يقدرون على الأقوات فضلاً عن الأقساط.

وأما القاهرة فالأغلب على أهلها الجُنْد وغلمانهم، فلهذا تعذّرت عليهم الأموال، وهم في خلال هذا يراسلون نور الدين بما الناس فيه، وبذلوا له ثلث بلاد مصر، وأن يكون أسد الدين مقيماً عندهم في عسكر، وأقطاعهم من البلاد المصريّة أيضاً خارجاً عن الثّلث الذي لهم.

وكان نور الدين لما وصله كُتب العاضد بحلب أرسل إلى أسد الدين يستدعيه إليه، فخرج القاصد في طلبه، فلقيه على باب حلب، وقد قدِمَها من حمص وكانت إقطاعه، وكان سبب وصوله أنّ كتب المصريّين وصلته أيضاً في المعنى، فسار أيضاً إلى نور الدين، واجتمع به، وعجب نور الدين من حضوره في الحال، وسرّه ذلك، وتفاءل به، وأمر بالتجهيز إلى مصر، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك، وحكّمه في العسكر والخزائن، واختار من العسكر ألفَيْ فارس، وأخذ المال، وجمع ستّة آلاف فارس، وسار هو ونور الدين إلى دمشق فوصلها سلْخ صفر، ورحل إلى رأس الماء، وأعطى نور الدين كل فارس ممّن مع أسد الدين عشرين ديناراً معونةً غير محسوبة من جامكيّته، وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء منهم: مملوكه عز الدين جُورديك، وعزّ الدين قلج، وشرف الدّين بزغش،

= الإسلام (حوادث ٥٦٤ هـ) ص ١٢ ـ ١٣، العبر ٤/ ١٨٤، دول الإسلام ٢/ ٧٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٧٤، البداية والنهاية ١٢/ ٢٥٥، تاريخ ابن سباط ١/ ١٢٠، تاريخ الزمان ١٨١، تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ١/ ٢٤ ـ ٢٥.

(١) في الأوربية: «عليه».

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.

(٣) في (ب): «وشرع شاور في جمع المال قدر قريب».

وعين الدولة الياروقيّ، وقُطْب الدين ينال بن حسّان المنبِجي، وصلاح الدين يوسف بن أيّوب، أخي شِيركوه، على كرْهٍ منه، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾[1] أحبّ نور الدين مسير صلاح الدين، وفيه ذهاب بيته؛ وكره صلاح الدين المسير، وفيه سعادته ومُلكه، وسيرد ذلك عند موت شِيركوه، إن شاء الله تعالى[2].

وسار أسد الدين شِيركوه من رأس الماء مُجِدّاً منتصف ربيع الأول، فلما قارب مصر رحل الفرنج عنها عائدين إلى بلادهم بخُفيّ حُنين خائبين مما أمّلوا، وسمع نور الدين بعودهم، فسرّه ذلك، وأمر بضرب البشائر في البلاد، وبثّ رُسُله في الآفاق مبشّرين بذلك، فإنّه كان فتحاً جديداً لمصر وحفظاً لسائر بلاد الشام وغيرها.

فأما أسد الدين فإنّه وصل إلى القاهرة سابع جُمادى الآخرة، ودخل إليها، واجتمع بالعاضد لدين الله، وخلع عليه وعاد إلى خيامه بالخلعة العاضديّة، وفرح به أهل مصر، وأُجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة، والإقامات الوافرة، ولم يمكن شاور المنع عن ذلك لأنّه رأى العساكر كثيرة مع شِيركوه وهوى العاضد معهم، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه، وشرع يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل لنور الدّين من المال، وإقطاع الجُند، وإفراد ثُلث البلاد لنور الدّين، وهو يركب كلّ يوم إلى أسد الدّين ويسير معه ويَعِده ويُمنّيه ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاّ غُرُوراً﴾[3].

ثمّ إنّه عزم على أن يعمل دعوة يدعو إليها أسد الدين والأمراء الذين معه ويقبض عليهم، ويستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الفرنج، فنهاه ابنه الكامل، وقال له: والله لئن عزمت على هذا لأعرّفنّ شِيركوه. فقال له أبوه: والله لئن لم نفعل[4] هذا لنُقتلنّ جميعاً. فقال: صدقتَ ولأن[5] نُقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلاميّة، خير من أن نُقتل وقد ملكها الفرنج، فإنّه ليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شِيركوه، وحينئذٍ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

(٢) النوادر السلطانية ٣٨.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٠.

(٤) في الأوربية: «تفعل».

(٥) في الأوربية: «ولئن».

فارساً واحداً ويملكون البلاد؛ فترك ما كان عزم عليه.

ولما رأى العسكر النوريّ مَطَل شاور خافوا شرّه، فاتّفق صلاح الدين يوسف بن أيّوب وعز الدّين جُورديك وغيرهما على قتل شاور، فأعلموا أسد الدّين فنهاهم عنه، فسكتوا وهم على ذلك العزم من قتله، فاتّفق أن شاور قصد عسكر أسد الدين على عادته، فلم يجده في الخيام، كان قد مضى يزور قبر الشافعيّ، رضي الله عنه، فلقِيه صلاح الدّين يوسف وجُورديك في جمع من العسكر، وخدموه، وأعلموه بأن شِيركوه في زيارة قبر الإمام الشافعي، فقال: نمضي إليه؛ فساروا جميعاً، فسايره صلاح الدّين وجُورديك وألقياه[1] إلى الأرض عن فرسه، فهرب أصحابه عنه، فأُخذ أسيراً، فلم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين، فتوكّلوا بحفظه، وسيّروا فأعلموا أسد الدين الحال، فحضر، ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه. وسمع الخليفة العاضد صاحب مصر الخبر، فأرسل إلى أسد الدّين يطلب منه إنفاذ رأس شاور، وتابع الرسُل بذلك، فقُتل وأُرسل رأسه إلى العاضد في السابع عشر من ربيع الآخر.

ودخل أسد الدين القاهرة، فرأى من اجتماع الخلق ما خافهم على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين، يعني العاضد، يأمركم بنهب دار شاور؛ فتفرّق النّاس عنه إليها فنهبوها، وقصد هو قصر العاضد، فخلع عليه خِلعة الوزارة، ولقب الملك المنصور أمير الجيوش، وسار بالخلع إلى دار الوزارة، وهي التي كان فيها شاور، فلم ير فيها ما يقعد عليه، واستقرّ في الأمر، وغلب عليه، ولم يبق له مانع ولا منازع، واستعمل على الأعمال من يثق به[2] من أصحابه وأقطع البلاد لعساكره.

وأمّا الكامل بن شاور فإنه لما قُتل أبوه دخل القصر هو وإخوته معتصمين به، فكان آخر العهد بهم، فكان شِيركوه يتأسّف عليه كيف عُدم لأنه بلغه ما كان منه مع أبيه في منعه من قتل شِيركوه، وكان يقول: وددتُ أنّه بقي لأحسن إليه جزاء الصنيعة[3].

---

(1) في الأوربية: «وألقوه».

(2) في الأوربية: «إليه».

(3) انظر عن قتل شاور في: التاريخ الباهر ١٤٠، والنوادر السلطانية ٣٩ ـ ٤٠، والروضتين ج ١ ق ٢/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨، وتاريخ الزمان ١٨٢، وتاريخ مختصر الدول ٢١٢، وسنا البرق الشامي ١/ ٧٨، وأخبار الدول المنقطعة ٨١٦، ومفرّج الكروب ١/ ١٦٠ ـ ١٦٧، والمغرب في حلى المغرب ٩٦، وزبد الحلب ٢/ ٣٢٧، ومرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٥ =

ذكر وفاة أسد الدين شيركوه

لمّا ثبت قدمُ أسد الدين، وظنّ أنه لم يبق له منازع، أتاه أجله ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾[1] فتُوفيّ يوم السبت الثاني والعشرين من جُمادى الآخرة سنة أربعٍ وستّين وخمسمائة، وكانت ولايته شهرَيْن وخمسة أيام.

وأما ابتداء أمره وسبب اتّصاله بنور الدين، فإنّه كان هو وأخوه نجم الدين أيّوب ابنا شاذي من بلد دُوَين، وأصلهما من الأكراد الروادية، وهذا النَّسل هم أشرف الأكراد، فقدِما العراق، وخدما مجاهد الدين بَهرُوز شِحنة بغداد. فرأى من نجمِ الدين عقلاً ورأياً وافراً وحُسن سيرة، وكان أكبر من شِيركوه، فجعله مستحفظاً لقلعة تكريت، وهي له، فسار إليها ومعه أخوه شِيركوه، فلمّا انهزم أتابك الشهيد. زنكي بن آقسنقر بالعراق من قراجه الساقي على ما ذكرناه سنة ستّ وعشرين وخمسمائة، وصل منهزماً إلى تكريت، فخدمه نجم الدين، وأقام له السفن فعبر دجلة هناك، وتبعه أصحابه، فأحسن أيّوب صُحبتهم وسيّرهم.

ثمّ إنّ شِيركوه قتل إنساناً بتكريت لمُلاحاةٍ جرت بينهما، فأخرجهما بَهروز من القلعة، فسارا إلى الشهيد زنكي، فأحسن إليهما. وعرف لهما خدمتهما، وأقطعهما إقطاعاً حسناً؛ فلمّا ملك قلعة بعلبك جعل أيّوب مستحفظاً بها؛ فلما[2] قُتل الشهيد حصر عسكر دمشق بعلبك وهو بها، فضاق عليه الأمر، وكان سيف الدين غازي بن زنكي مشغولاً عنه بإصلاح البلاد. فاضطرّ إلى تسليمها إليهم، فسلّمها على إقطاعٍ ذكره، فأجيب إلى ذلك، وصار من أكبر الأمراء بدمشق.

واتّصل أخوه أسد الدين شِيركوه بنور الدين محمود بعد قتل زنكي، وكان يخدمه في أيّام والده، فقرّبه وقدّمه، ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها. فزاده حتى صار له

= ـ ٤٦، ونهاية الأرب ٢٨/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣، والدر المطلوب ٣٥، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٤ هـ) ص ١٣، ومرآة الجنان ٣/ ٣٧٤، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٥٦ واتعاظ الحنفا ٣/ ٣٠١، والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٣٩ و٣٥١ ـ ٣٥٢، وتاريخ الخلفاء ٤٤٤، وشفاء القلوب ٢٦ ـ ٣٥، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٢١، وتاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ١/ ٢٩ ـ ٣٣، وبدائع الزهور ج ١ ق ١/ ٢٣٢.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

(٢) في الأوربية: «قلما».

حمص والرَّحبة وغيرهما، وجعله مقدّم عسكره، فلما أراد نور الدين مُلك دمشق أمره فراسل أخاه أيّوب وهو بها، وطلب منه المساعدة على فتحها، فأجاب إلى ما يراد منه على إقطاع ذكره له ولأخيه، وقُرًى يتملّكانها، فأعطاهما ما طلبا، وفتح دمشق على ما ذكرناه. ووفى[1] لهما، وصارا أعظم أمراء دولته. فلما أراد أن يرسل العساكر إلى مصر، لم يرد لهذا الأمر العظيم والمقام الخطير غيره، فأرسله، ففعل ما ذكرناه[2].

ذكر مُلك صلاح الدين مصر

لما تُوفّي أسد الدين شِيركوه كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيّوب بن شاذي قد سار معه على كرهٍ منه للمسير.

حكى لي عنه بعض أصدقائنا ممّن كان قريباً إليه خصيصاً به قال: لما وردت كُتب العاضد على نور الدين يستغيث به من الفرنج، ويطلب إرسال العساكر، أحضرني وأعلمني الحال، وقال: تمضي إلى عمّك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه ليحضر، وتحثّه أنت على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير؛ ففعلتُ، وخرجنا من حلب، فما كنّا على ميل من حلب حتى لقيناه قادماً في هذا المعنى، فأمره نور الدين بالمسير، فلما قال له نور الدين ذلك التفت عمي إليّ فقال لي: تجهّز يا يوسف! فقلتُ: والله لو أُعطيتُ مُلك مصر ما سرتُ إليها، فلقد قاسيتُ بالإسكندريّة وغيرها ما لا أنساه أبداً. فقال لنور الدين: لا بُدّ من مسيره معي فتأمر به، فأمرني نور الدين، وأنا أستقيل، وانقضى المجلس.

وتجهز أسد الدين، ولم يبق غير المسير؛ قال لي نور الدين: لا بُد من مسيرك مع عمك؛ فشكوتُ إليه الضائقة وعدم البرك، فأعطاني ما تجهزتُ به فكأنما أُساق إلى الموت، فسرتُ معه وملكها، ثمّ تُوفيّ فملّكني الله تعالى ما لم أكن أطمع في بعضه.

وأما كيفية ولايته، فإن جماعة من الأمراء النُّورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدّم على العساكر، وولاية الوزارة العاضدية بعده، منهم: عين الدولة الياروقيّ، وقُطْب الدين، وسيف الدين المشطوب الهكّاريّ، وشهاب الدين محمود الحارميّ، وهو خال صلاح الدين، وكلّ واحد من هؤلاء يخطبها[3]، وقد جمع أصحابه ليغالب عليها،

---

(١) في الأوربية: «ووفا».
(٢) انظر عن وفاة شيركوه في: تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٤هـ) ص ١٤ وفيه حشدت مصادر ترجمته.
(٣) في (أ): «يطلبها».

فأرسل العاضد إلى صلاح الدين فأحضره عنده، وخلع عليه، وولاه الوزارة بعد عمّه.

وكان الذي حمله على ذلك أن أصحابه قالوا له: ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من يوسف، والرأي أن يولّى، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا، ثم نضع على العساكر مَن يستميلهم إلينا، فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد، ثم نأخذ يوسف أو نخرجه.

فلما خلع عليه لقب الملك النّاصر لم يُطعه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم، ولا خدموه. وكان الفقيه عيسى الهكّاري معه، فسعى مع المشطوب حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الأمر لا يصل إليك مع عين الدولة والحارميّ وغيرهما؛ ثمّ قصد الحارميّ وقال: هذا صلاح الدين هو ابن أختك وعزّه ومُلكه لك، وقد استقام له الأمر فلا تكن أوّل من يسعى في إخراجه عنه ولا يصل إليك، فمال إليه أيضاً، ثمّ فعل مثل هذا بالباقين، وكلّهم أطاع غير عين الدولة الياروقيّ فإنه قال: أنا لا أخدم يوسف؛ وعاد إلى نور الدين بالشام ومعه غيره من الأمراء، وثبت قدم صلاح الدين، ومع هذا فهو نائب عن نور الدين.

وكان نور الدين يكاتبه بالأمير الاسفهسلار، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أن يكتب اسمه، وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب الأمير الاسفهسلار صلاح [الدين] وجميع الأمراء بالدّيار المصريّة يفعلون كذا.

واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل الأموال، فمالوا إليه وأحبّوه وضعُف أمر العاضد، ثمّ أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته وأهله، فأرسلهم إليه، وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته، وكلّهم فعل ذلك، وأخذ إقطاعات الأمراء المصريّين فأعطاها أهله والأمراء الذين معه، وزادهم، فازدادوا له حبّاً وطاعة[1].

قد اعتبرتُ التواريخ، فرأيتُ كثيراً من التواريخ الإسلاميّة التي يمكن ضبطها، ورأيتُ كثيراً ممّن يبتدىء الملك تنتقل الدّولة عن صلبه إلى بعض أهله وأقاربه، منهم أوّل الإسلام: معاوية بن أبي سفيان، أوّل من ملك من أهل بيته، فنقل المُلْك عن

---

(١) سنا البرق الشامي ٨٣ ـ ٨٤، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٤٥٠ ـ ٤٥٢، مفرّج الكروب ١/ ١٧٤ ـ ١٧٩، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٤ هـ) ص ١٤ ـ ١٥، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٧٦ ـ ٧٧، البداية والنهاية ١٢/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨، الكواكب الدرية ١٨٤، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٥٤.

أعقابه إلى بني مروان من بني عمّه؛ ثمّ من بعده السفّاح أوّل من ملك من بني العبّاس، انتقل الملك من أعقابه إلى أخيه المنصور؛ ثم السامانيّة أوّل من استبدّ منهم نصر بن أحمد، فانتقل الملك عنه إلى أخيه إسماعيل بن أحمد وأعقابه؛ ثمّ يعقوب الصفار، وهو أوّل من ملك من أهل بيته، فانتقل الملك إلى أخيه عمرو وأعقابه، ثم عماد الدولة بن بُوَيْه أوّل من ملك من أهله انتقل الملك عنه إلى أخويه ركن الدولة وعزّ الدولة؛ ثمّ خلص في أعقاب ركن الدولة، (ومعزّ الدولة)[1]؛ ثمّ خلص في أعقاب ركن الدولة؛ ثم الدولة السلجُوقيّة أوّل من ملك منهم طُغرُلْبك انتقل الملك إلى أولاد أخيه داود؛ ثمّ شِيركوه هذا كما ذكرناه (انتقل الملك إلى أعقاب أخيه أيّوب؛ ثمّ إنّ صلاح الدين لمّا أنشأ الدولة وعظّمها، وصار كأنّه أوّلٌ لها، نقل الملك إلى أعقاب أخيه العادل، ولم يبق بيد أعقابه غير حلب)[2].

وهذه أعظم الدول الإسلاميّة، ولولا خوف التطويل لذكرنا أكثر من هذا، والذي أظنّه السبب في ذلك أنّ الذي يكون أول دولة يكثر[3] ويأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلّقة به فلهذا يحرمه الله أعقابه ومن يفعل ذلك من أجلهم عقوبة له.

ذكر وقعة السودان بمصر

في هذه السنة في أوائل ذي القعدة قُتل مؤتمن الخلافة، وهو خصيّ كان بقصر العاضد، إليه الحكم فيه، والتقدّم على جميع من يحويه، فاتفق هو وجماعة من المصريّين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم إلى البلاد، والتقوّي بهم على صلاح الدين ومن معه، وسيّروا الكتب مع إنسان يثقون به[4]، وأقاموا ينتظرون جوابه، وسار ذلك القاصد إلى البئر البيضاء، فلقيه إنسان تُركمانيّ، فرأى (معه)[5] نعلَين جديدين، فأخذهما منه وقال في نفسه: لو كانا ممّا يلبسه[6] هذا الرجل (لكانا[7] خَلَقين،

---

(١) من (أ).
(٢) ما بين القوسين من (أ). وانظر تاريخ ابن سباط ١/ ١٢٤.
(٣) في (ب): «يكثر القتل».
(٤) في الأوربية: «إليه».
(٥) من (أ).
(٦) في (ب): «يلبسهما».
(٧) في الأوربية: «لكان».

فإنّه[1]) رثّ الهيئة؛ وارتاب به وبهما، فأُتي بهما صلاح الدين ففتقهما[2]، فرأى الكتاب فيهما، فقرأه وسكت عليه.

وكان مقصود مؤتمن الخلافة أن يتحرّك الفرنج إلى الديار المصريّة، فإذا وصلوا إليها خرج صلاح الدين في العساكر إلى قتالهم، فيثور مؤتمن الخلافة بمّن معه من المصريّين على مخلفيهم فيقتلونهم، ثم يخرجون بأجمعهم يتبعون صلاح الدين، فيأتونه من وراء ظهره، والفرنج من بين يديه، فلا يبقى لهم باقية. فلما قرأ الكتاب سأل عن كاتبه فقيل: رجل يهوديّ، فأُحضر، فأمر بضربه وتقريره، فابتدأ وأسلم، وأخبره الخبر، وأخفى صلاح الدين الحال.

واستشعر مؤتمن الخلافة فلازم القصر ولم يخرج منه خوفاً، وإذا خرج لم يبعد [وصلاح الدين] لا يُظهر له شيئاً من الطلب، لئلا ينكر ذلك، فلما طال الأمر خرج من القصر إلى قرية له تُعرف بالحرقانيّة للتنزّه، فلمّا علم به صلاح الدين أرسل إليه جماعة، فأخذوه وقتلوه وأتوه برأسه، وعزل جميع الخدم الذين يتولّون أمر قصر الخلافة، واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش، وهو خصيّ أبيض، وكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير[3] إلا بأمره وحكمه، فغضب السودان الذين بمصر لقتل مؤتمن الخلافة حميّة، ولأنّه كان يتعصّب لهم، فحشدوا وجمعوا، فزادت عدّتهم على خمسين ألفاً، وقصدوا حرب الأجناد الصلاحيّة، فاجتمع العسكر أيضاً، وقاتلوهم بين القصرَيْن.

وكثر القتل في الفريقين، فأرسل صلاح الدين إلى محلتهم المعروفة بالمنصورة، فأحرقها على أموالهم وأولادهم وحُرَمهم، فلما أتاهم الخبر بذلك ولّوا منهزمين، فركبهم السيف، وأُخذت عليهم أفواه السكك، فطلبوا الأمان بعد أن كثر فيهم القتل، فأجيبوا إلى ذلك، فأُخرجوا من مصر إلى الجيزة، فعبر إليهم شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين الأكبر في طائفة من العسكر، فأبادهم بالسيف، ولم يبق منهم إلا القليل الشريد، وكفى الله تعالى شرّهم، والله أعلم[4].

---

(١) ما بين القوسين من (أ).

(٢) في (أ): «ففتشهما».

(٣) في الأوربية: «صغيراً ولا كبيراً».

(٤) سنا البرق الشامي ١/٨٣ ـ ٨٤، الروضتين ج ١ ق ٢/٤٥١، مفرّج الكروب ١/١٧٦.

ذكر مُلك شُملة فارس وإخراجه[1] عنها

في هذه السنة ملك شُملة صاحب خوزستان بلاد فارس، وأُخرج عنها، وسبب ذلك أنّ زنكي بن دكلا صاحبها أساء السيرة مع عسكره فأرسلوا إلى شملة بخوزستان وحسّنوا له قصد فارس، فجمع عساكره وتجهّز وسار إليها، فخرج إليه زنكي بن دكلا، ووقعت بينهم حرب خامر فيها أصحاب زنكي عليه، فانهزم في شرذمة من عسكره، ونجا بنفسه، وقصد الأكراد الشوانكار والتجأ إليهم، فأجاره صاحبها، وأحسن ضيافته.

ونزل شُملة ببلاد فارس فملكها، فأساء السيرة إلى أهلها، ونهب ابن أخيه ابن سنكا البلاد فتغيّرت بواطن[2] أهلها عليه، واجتمع إلى زنكي بعض العسكر الذين خامروا عليه، لما رأوا من سوء سيرة شُملة فيهم، فكثُر جمعه مع الأكراد الشوانكار ونزل بهم إلى البلاد وكاتب عسكره ووعدهم الإحسان فأقبلوا إليه فقصد شُملة وواقعه فانهزم شُملة، واستعاد زنكي بلاده ورجع إلى ملكه، وعاد شُملة إلى بلاده خوزستان[3].

ذكر مُلك إيلدكز الرَّيّ

في هذه السنة ملك إيلدكز مدينة الرَّيّ والبلاد التي كانت بيد إينانج.

وسبب ذلك أن إيلدكز كان قد استقرّ الأمر بينه وبين إينانج على مال يؤديّه إلى إيلدكز، فمنعه سنتين، فأرسل إيلدكز يطلب المال فاعتذر بكثرة غلمانه وحاشيته، فتجهّز إيلدكز وقصد الريّ، فالتقاه إينانج وحاربه حرباً عظيمة، فانهزم إينانج ومضى منهزماً، فتحصّن بقلعة طبرك، فحصره إيلدكز فيها وراسل سراً جماعة من مماليكه، فأطمعهم في الإقطاعات والأموال والإحسان العظيم ليقتلوا إينانج، فقتلوه، وكانوا جماعة كثيرة، وسلّموا البلد إلى إيلدكز، فرتّب فيه عمر بن عليّ ياغ، وعاد إلى هَمَذان، ولم يفِ للغلمان الذين قتلوا إينانج وسلّموا البلد إليه بما وعدهم، وقال: مثل هؤلاء ينبغي أن لا يُستخدم؛ وأبعدهم عنه فتفرّقوا في البلاد، فسار بعضهم، وهو الذي

---

(١) في الأوربية: «وأخرجه».

(٢) في الأوربية: «بواطي».

(٣) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٤ هـ) ص ١٩.

تولّى قتله، إلى خُوارزم شاه، فصلبه خُوارزم شاه نكالاً بما فعل بصاحبه[1].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة رُؤي في دار الخليفة المستنجد بالله رجل غريب في الطريق الذي يركب فيه وفي زنده سكّين صغيرة، وفي يده سكّين أخرى كبيرة، فأخذوه وقرّروه، فقال: أنا من حلب. فحُبس وعوقب البوّاب، ولم يعلم من أين دخل[2].

وفيها قبض ابن البلديّ وزير الخليفة على الحسين بن محمّد المعروف بابن السيبيّ، وعلى أخيه الأصغر، وكانا ابنَيْ عمّة عضُد الدين أستاذ الدار، وكان الأصغر عامل البيمارستان، فقُطعت يده ورجله. قيل كان عنده صُنجٌ زائدة يُقبض بها وتُحمل إلى الديوان بالصُّنج الصحيحة؛ وقيل غير ذلك. وحُمل إلى البيمارستان فمات به. وكان شاعراً، فمن شعره وهو محبوس هذه الأبيات:

سَلامٌ على أهلي وصحبي وجُلّاسي ... ومَن في فؤادي ذكرُهم راسبٌ راسِي
أُعالِجُ فيكُم كلّ هَمّ ولا أرَى ... لداء هُمومي غيرَ رُؤيتِكم آسِي
لقَد أبدَتِ الأيّامُ لي كلّ شِدّةٍ ... تَشيبُ لها الأكبادُ فَضْلاً عن الرّاسِ
فيا ابنَةَ عبدِ اللّهِ صَبراً على الّذِي ... لَقيتُ فهذَا الحكمُ من مالِكِ النّاسِ
فلَوْ أبصرَتْ عيناكِ ذلّي بكَيتِ لي ... بدَمْعٍ سَوِيّ بالمَدامِعِ رَجّاسِ
أقُولُ لقَلبي والهُمُومُ تَنُوشُهُ ... وقد حَدّثتهُ النّفسُ بالضّرّ والياسِ
فلَوْ هَمّ طَيفٌ من خَيالي يَزُورُكم ... لمَانَعَهُ دُونَ المَغالِقِ حُرّاسِي
ومَا حَذَري إلاّ على النّفسِ لا على ... سِواها لأنّي حِلفُ فَقرٍ وإفلاسِ

[الوفيات]

وفيها تُوفي المعمّر بن عبد الواحد بن رجاء أبو أحمد الأصفهانيّ الحافظ، يروي عن أصحاب أبي نُعَيم، وكان موته بالبادية ذاهباً إلى الحجّ في ذي القعدة.

وفي رجب منها تُوفيّ الشيخ أبو محمد الفارقيّ المتكلّم على الناس، وكان أحد

(١) المختصر في أخبار البشر ٤٨/٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٤ هـ) ص ١٨ ـ ١٩، تاريخ ابن الوردي ٧٧/٢، تاريخ ابن سباط ١٢٥/١.

(٢) المنتظم ٢٢٦/١٠ (١٨٢/١٨).

الزُّهاد، له كرامات كثيرة، وكان يتكلّم على الخاطر، وكلامه مجموع مشهور.

وفيها ماتَ جُعَيْفر الرقّاص من نُدماء دار الخلافة.

وفي شوّال منها تُوفيّ القاضي أبو الحسن عليُّ بن يحيى القُرشيّ الدمشقيّ.

وفي ذي الحجّة تُوفي نجم الدين بن محمّد بن عليّ بن القاسم الشّهْرزوريّ قاضي الموصل، وولي ابنه حُجّة الدين عبد القاهر القضاء.

٥٦٥
ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

ذكر حصر الفرنج دمياط

في هذه السنة، في صفر، نزل الفرنج على مدينة دمياط من الديار المصريّة وحصروها، وكان الفرنج بالشام، لما ملك أسد الدين شِيركوه مصر، قد خافوه، وأيقنوا بالهلاك، وكاتبوا الفرنج الذين بصقليّة والأندلس وغيرهما[١] يستمدّونهم ويعرّفونهم ما تجدّد من مُلك الأتراك مصر، وأنهم خائفون على البيت المقدس منهم، فأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرّضونهم على الحركة، فأمدّوهم بالأموال والرجال والسلاح، واتّعدوا للنزول على دمياط ظنّاً منهم أنّهم يملكونها، ويتخّذونها ظهراً يملكون به الديار المصرية **﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً﴾**[٢] فإلى أن دخلوا كان أسد الدين قد مات وملك صلاح الدين، فاجتمعوا عليها وحصروها، وضيّقوا على من بها.

فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل وحشر فيها كل من عنده، وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر، وأرسل إلى نور الدين يشكو ما هم فيه من المخافة، ويقول: إني إن تأخّرتُ عن[٣] دِمياط ملكها الفرنج، وإن سرتُ إليها خلفني المصريّون في أهلها وأموالها بالشرّ، وخرجوا عن طاعتي، وساروا في أثري، والفرنج من أمامي، فلا يبقى لنا باقية.

فسيّر نور الدين العساكر إليه أرسالاً يتلو بعضها بعضاً، ثمّ سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج الشاميّة، فنهبها، وأغار عليها واستباحها، فوصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه قبلُ لخُلُوّ البلاد من مانع.

---

(١) في الأوربية: «وغيرها».
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٥.
(٣) في الأوربية: «من».

فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر، ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وتخريبها، رجعوا خائبين لم يظفروا بشيء، ووجدوا بلادهم خراباً، وأهلها بين قتيل وأسير، فكانوا موضع المثل: خرجت النعامة تطلب قرنين رجعت بلا أُذُنين.

وكانت مدّةُ مقامهم على دِمياط خمسين يوماً أخرج فيها صلاح الدين أموالاً لا تُحصى. حكي لي أنّه قال: ما رأيتُ أكرم من العاضد، أرسل إليّ مدةً لمقام الفرنج على دِمياط ألف ألف دينار مصريّة سوى الثياب وغيرها[1].

ذكر حصر نور الدين الكَرَك

في هذه السنة، في جُمادى الآخرة، سار نور الدين إلى بلد الفرنج، فحصر الكَرَك، وهو من أمنع المعاقل على طرف البرّ.

وكان سبب ذلك أنّ صلاح الدين أرسل إلى نور الدين يطلب أن يرسل إليه والده نجم الدين أيّوب، فجهّزه نور الدين، وسيّره، وسيّر معه عسكراً، واجتمع معه من التجّار خلق كثير، وانضاف إليهم من كان له مع صلاح الدين أنسٌ وصحبةٌ، فخاف نور الدين عليهم من الفرنج، فسار في عساكره إلى الكَرَك، فحصره وضيّق عليه ونصب عليه المجانيق، فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا له. وساروا إليه، وقد جعلوا في مقدّمتهم إليه ابن هَنْفَري وقريب بن الرقيق. وهما فارسا الفرنج في وقتهما. فرحل نور الدين نحو هذَيْن المقدّمَين ليلقاهما ومن معهما قبل أن يلتحق بهما باقي الفرنج، فلمّا قاربهما رجعا القهقرى واجتمعا بباقي الفرنج.

وسلك نور الدين وسط بلادهم ينهب ويحرق ما على طريقه من القرى إلى أن وصل إلى بلاد الإسلام، فنزل على عشترا، وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم. فلم

---

(١) انظر خبر دمياط في: سنا البرق الشامي ١/٨٦، والنوادر السلطانية ٤١ ـ ٤٣، ومرآة الزمان ج ٨ ق ١/٢٧٩، والروضتين ج ١ ق ٢/٤٥٦ ـ ٤٦٢، ومفرّج الكروب ١/١٧٩ ـ ١٨٤، وتاريخ الزمان ١٨١، والمختصر في أخبار البشر ٣/٤٨ ـ ٤٩، والدر المطلوب ٤١، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٥ هـ) ص ٢١، والعبر ٤/٨٩، ودول الإسلام ٢/٧٨، وتاريخ ابن الوردي ٢/٧٧، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٦٠، ومرآة الجنان ٣/٣٧٨، والكواكب الدرية ١٨٥ ـ ١٨٧، واتعاظ الحنفا ٣/٣١٥ ـ ٣١٦، والنجوم الزاهرة ٥/٧، وتاريخ ابن سباط ١/١٢٦، وتاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ١/٨٢ ـ ٨٧، وبدائع الزهور ج ١ ق ١/ ٢٣١، والإعلام والتبيين ٢٩.

يبرحوا من مكانهم، فأقام هو حتى أتاه خبر الزلزلة الحادثة فرحل.

وأمّا نجم الدين أيوب فإنه وصل إلى مصر سالماً هو ومن معه وخرج العاضد الخليفة فالتقاه[1] إكراماً له[2].

ذكر غزوة لسرية نوريّة

كان شهاب الدين إلياس بن إيلغازي[3] بن أرتق، صاحب قلعة البِيرة، قد سار في عسكره، وهو في مائتي فارس، إلى نور الدين وهو بعشترا، فلما وصل إلى قرية اللّبوة، وهي من عمل بَعْلَبَك، ركب متصيّداً، فصادف ثلاثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للإغارة على بلاد الإسلام سابع عشر شوّال، فوقع بعضهم على بعض، واقتتلوا واشتدّ القتال، وصبر الفريقان لا سيّما المسلمون، فإنّ ألف فارس لا يصبرون لحملة ثلاثمائة فارس إفرنجيّة، وكثر القتلى بين الطائفتين، فانهزم الفرنج، وعمّهم القتل والأسر، فلم يفلت منهم إلا من لا يُعتدّ به.

وسار شهاب الدين برؤوس القتلى وبالأسرى إلى نور الدين، فركب نور الدين والعسكر، فلقوهم، فرأى نور الدين في الرؤوس رأس مقدّم الإسبتار[4]، صاحب حصن الأكراد، وكان من الشجاعة بمحلٍّ كبير، وكان شجاً في حلوق المسلمين[5].

ذكر الزلزلة وما فعلته بالشام

في هذه السنة أيضاً، ثاني عشر شوّال، كانت زلازل عظيمة متتابعة هائلة لم يرَ النّاس مثلها، وعمّت أكثر البلاد من الشام، والجزيرة، والموصل، والعراق، وغيرها

---

(١) في (أ): «التلقاه».

(٢) انظر خبر الكرك في: سنا البرق الشامي ١/ ٨٩ ـ ٩٠، والنوادر السلطانية ٤٥، والتاريخ الباهر ١٤٤، وزبدة الحلب ٢/ ٣٢٩، والروضتين ج ١ ق ٢/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٩، والعبر ٤/ ١٩٠، ودول الإسلام ٢/ ٧٨، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٥ هـ) ص ٢٣، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٦٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٧٨، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٤٩، والكواكب الدرية ١٨٨، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٢٧، وتاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ١/ ٩٣، والإعلام والتبيين ٣٠.

(٣) في (ب): «إلياس بن محمد».

(٤) في (أ): «الاسبيتار».

(٥) زاد في (ب): «فسُر المسلمون بقتله». والخبر في التاريخ الباهر ١٤٥ ـ ١٤٦، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٤٧١ ـ ٤٧٢.

من البلاد، وأشدّها كان بالشام، فخرّبت كثيراً من دمشق، وبعلبك، وحمص، وحماة، وشَيْزَر، وبَعْرين، وحلب، وغيرها، وتهدّمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدُّور على أهلها، وهلك منهم ما يخرج عن الحدّ.

فلما أتاه الخبر سار إلى بَعْلَبَك ليعمّر ما انهدم من سورها وقلعتها، فلمّا وصلها أتاه خبر باقي البلاد، وخراب أسوارها وقلاعها، وخُلُوّها من أهلها، فجعل ببعلبكّ من يعمّرها ويحميها ويحفظها، وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك، ثمّ إلى حماة، (ثمّ إلى بعرين)[1]، وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج، ثمّ أتى مدينة حلب، فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد، فإنّها كانت قد أتت عليها وبلغ الرعب ممّن نجا كلّ مبلغ، وكانوا لا يقدرون [أن] يأووا [إلى] مساكنهم خوفاً من الزلزلة، فأقام بظاهرها، وباشر عمارتها بنفسه، فلم يزل كذلك حتى أحكم أسوار البلاد وجوامعها.

وأما بلاد الفرنج فإنّ الزلازل أيضاً عملت بها كذلك فاشتغلوا بعمارة بلادهم خوفاً من نور الدين عليها، فاشتغل كلّ منهم بعمارة بلاده خوفاً من الآخر[2].

ذكر وفاة قطب الدين مودود بن زنكي ومُلك ابنه سيف الدين غازي

في هذه السنة، في ذي الحجّة[3]، مات قُطْب الدين مودود بن زنكي[4]، بن آقسنقر، صاحب الموصل، بالموصل، وكان مرضه حُمَّى حادّة، ولمّا اشتدّ مرضه

---

(١) في (أ) وفي (ب): «بارين».

(٢) انظر عن الزلزلة في: النوادر السلطانية ٤٣، وسنا البرق الشامي ١/ ٩١ ـ ٩٣، والتاريخ الباهر ١٤٥، وزبدة الحلب ٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣١، وتاريخ الزمان ١٨٣، ومرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٩، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٥ هـ) ص ١٢، ودول الإسلام ٢/ ٧٨، والعبر ٤/ ١٨٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٧٨، ومرآة الجنان ٣/ ٣٧٨، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٦١، والكواكب الدرية ١٨٩، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٤٩، واتعاظ الحنفا ٣/ ٣١٨، وكشف الصلصلة ١٩٢ ـ ١٩٣، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٢٧، وتاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ١/ ٩٤ ـ ٩٨، وتاريخ الحروب الصليبية لستيفن رنسيمان ٢/ ٦٣٨، وتاريخ طرابلس (تأليفنا) ١/ ٥١٦.

(٣) في (أ): «في شوال».

(٤) انظر عن (قطب الدين مودود) في: التاريخ الباهر ١٤٦ ـ ١٥٠، والروضتين ج ١ ق ٢/ ٤٧٢، والعبر ٤/ ١٩١.

أوصى بالمُلْك بعده لابنه الأكبر عماد الدين زنكي، ثمّ عدل عنه إلى ابنه الآخر سيف الدين غازي، وإنما صرف الملك عن ابنه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود لأن القيّم بأمور دولته، والمقدّم فيها، كان خادماً له يقال له فخر الدين عبد المسيح، وكان يكره عماد الدين لأنّه كان طوع عمّه نور الدين، لكثرة مُقامه عنده، ولأنه زوج ابنته، وكان نور الدين يبغض عبد المسيح، فاتفق فخر الدين وخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي، وهي والدة سيف الدين، على صرف المُلك عن عماد الدين إلى سيف الدين، فرحل عماد الدين إلى عمّه نور الدين مستنصراً به ليُعينه على أخذ المُلك لنفسه.

وتُوفي قُطْب الدين وعُمره نحو أربعين سنة، وكان مُلكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً، وكان فخر الدين[1] هو المدبّر للأمور والحاكم في الدّولة، وكان قُطْب الدّين من أحسن الملوك سيرةً وأعفّهم عن أموال رعيّته، محسناً إليهم، كثير الإنعام عليهم، محبوباً إلى كبيرهم وصغيرهم، عطوفاً على شريفهم ووضيعهم، كريم الأخلاق، حسن الصُّحبة لهم، فكأن القائل أراده بقوله:

خُلقٌ كماء المُزْنِ طِيبَ مَذَاقَةٍ ... والرّوضَةِ الغَنّاءِ طِيبَ نَسيمِ
كالسّيفِ لكِنْ فيهِ حِلمٌ وَاسعٌ ... عمّن جنى[2] والسّيفُ غيُر حَليمِ
كالغَيْثِ إلا أنّ وَابِلَ جُودِهِ ... أبداً وَجُودُ الغَيثِ غيرُ مُقيمِ
كالدّهْرِ إلاّ أنّهُ ذو رَحْمَةٍ ... والدّهرُ قاسي القلبِ غيرُ رَحِيمِ[3]

وكان سريع الانفعال للخير، بطيئاً عن الشرّ، جمّ المناقب، قليل المعايب، رحمه الله ورضي عنه وعن جميع المسلمين بمنّه وكرمه، إنّه جوادٌ كريم.

ذكر حالة ينبغي للملوك أن يحترزوا من مثلها

حدّثني والدي، رحمه الله، قال: كنتُ أتولّى جزيرة ابن عمر لقُطْب الدين، كما علمتم، فلمّا كان قبل موته بيسير أتانا كتاب من الدّيوان بالموصل يأمرون بمساحة جميع بساتين العقيمة[4]، وهذه العقيمة هي قرية تحاذي الجزيرة بينهما دجلة، ولها

---

(١) في (أ): «وكان فخر المؤمن».
(٢) في الأوربية: «جنا».
(٣) الأبيات في التاريخ الباهر ١٤٨.
(٤) في (أ): «العقبة».

بساتين كثيرة بعضُها يُمسح فيؤخذ منه على كلّ جريب شيء معلوم، وبعضها عليه خراج، وبعضها مطلق من الجميع.

قال: وكان لي فيها ملك كثير، فكنتُ أقول: إنّ المصلحة أن لا يغيّر على النّاس شيء؛ وما أقول هذا لأجل ملكي، فإنّني أنا أمسح ملكي، وإنما أريد أن يدوم الدعاء من الناس للدولة. فجاءني كتاب النائب يقول: لا بُدّ من المساحة قال: فأظهرت الأمر، وكان بها قوم صالحون، لي بهم أنس، وبيننا مودّة، فجاءني الناس كلّهم، وأولئك معهم، يطلبون المراجعة، فأعلمتهم أنني رجعت وما أُجبتُ إلى ذلك، فجاءني منهم رجلان أعرف صلاحهما، وطلبا مني المعاودة ومخاطبة ثانية، ففعلت، فأصرّوا على المسح، فعرّفتهما الحال.

قال: فما مضى إلاّ عدّة أيام، وإذ قد جاءني الرجلان، فلمّا رأيتهما ظننتُ أنهما جاءا يطلبان المعاودة، فعجبتُ منهما، وأخذتُ أعتذر إليهما، فقالا: ما جئنا إليك في هذا، وإنما جئنا نعرّفك أن حاجتنا قُضيتْ. قال: فظننتُ أنهما قد أرسلا إلى الموصل إلى من يشفع لهما. فقلتُ: من الذي خاطب في هذا بالموصل؟ فقالا: إنّ حاجتنا قد قُضيت من السماء، ولكافّة أهل العقيمة[1].

قال: فظننتُ أن هذا ممّا قد حدّثا به نفوسهما، ثم قاما عنّي، فلم يمضِ غير عشرة أيام وإذ قد جاءنا كتاب من الموصل يأمرون بإطلاق المساحة والمحبَّسين والمكوس، ويأمرون بالصدقة، ويقال: إنّ السلطان، يعني قُطب الدين، مريض يعني على حالةٍ شديدة، ثم بعد يومين أو ثلاثة جاءنا الكتاب بوفاته، فعجبتُ من قولهما، واعتقدتُه كرامةً لهما، فصار والدي بعد ذلك يُكثر إكرامهما واحترامهما ويزورهما[2].

ذكر الحرب بين عساكر ابن عبد المؤمن وابن مَرْدَنيش

كان محمد بن سعد[3] بن مردنيش، ملك شرق الأندلس، قد اتّفق هو والفرنج، وامتنع على عبد المؤمن وابنه بعده، فاستفحل أمره، لا سيّما بعد وفاة عبد المؤمن،

---

(١) في (أ): «العقبة».

(٢) في التاريخ الباهر ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٣) في طبعة صادر ٣٥٨/٧ «سعيد»، والمثبت من (ب) ومصادر ترجمته، ومما سيأتي في الجزء التالي من الكتاب.

فلمّا كان هذه السنة جهّز إليه يوسف بن عبد المؤمن العساكر الكثيرة مع أخيه عمر بن عبد المؤمن، فجاسوا بلاده وخرّبوها، وأخذوا مدينتين من بلاده، وأخافوا عساكره وجنوده، وأقاموا ببلاده مدّة يتنقلون فيها ويَجْبُون أموالها[1].

ذكر وفاة صاحب كَرمان والخُلف بين أولاده

في هذه السنة تُوفي الملك طُغُرل بن قَاوَرْت صاحب كَرمان، واختلف أولاده بهرام شاه وأرسلان شاه، وهو الأكبر، وجرى بينهما قتال انهزم فيه بهرام شاه ومعه أخٌ له اسمه تركان شاه، فملك البلاد أرسلان شاه ومضى بهرام شاه إلى خُراسان، فدخل على المؤيّد صاحب نيسابور واستنجده، فأنجده بعساكر سار بها إلى كرمان، فجرى بين الأخوين حربٌ ظفر فيها بهرام شاه، [وهرب أرسلان شاه، فقصد أصفهان مستجيراً بإيلدكز، فأنفذ معه عسكراً، واستنقذوا البلاد من بهرام شاه وسلموها إلى أخيه أرسلان شاه فعاد][2] بهرام شاه إلى نيسابور مستجيراً بالمؤيّد صاحبها، فأقام عنده، فاتّفق أنّ أخاه أرسلان شاه مات، فسار إلى كرمان فملكها، وأقام بها بغير منازع.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كثرت الأذيّة من عبد الملك بن محمد بن عطاء، وتطرّق بلاد حلوان، ونهب وأفسد، وتطرّق الحجاج، فأُنفذ إليه من بغداد عسكر فنازلوه في قلاعه وضايقوه، ونهبوا أمواله وأموال أهله، حتى أذعن بالطاعة، ولا يعاود أذى الحجّاج ولا غيرهم، فعاد العسكر عنه.

[الوفيات]

وفيها تُوفي مجد الدين أبو بكر بن الداية، وهو رضيع نور الدين، وكان أعظم الأمراء منزلةً عنده، وله في أقطاعه حلب وحارم وقلعة جَعْبَر، فلمّا تُوفيّ ردّ نور الدين ما كان له إلى أخيه شمس الدين عليّ بن الداية.

وفيها، في شعبان، تُوفيّ أحمد بن صالح بن شافع أبو الفضل الجيليّ ببغداد، وهو من مشهوري المحدّثين. الجيليّ: بالجيم والياء تحتها نقتطان.

---

(١) المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة ٣٠٤.

(٢) ما بين الحاصرتين من الباريسية.

٥٦٦
ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة

ذكر وفاة المستنجد بالله

في هذه السنة، تاسع ربيع الآخر، تُوفي المستنجد بالله[١] أبو المظفّر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، وقد تقدم باقي النسب في غير موضع، وأمّه أمّ ولد، اسمها طاووس، وقيل نَرجس، روميّة، ومولده مستهلّ ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وشهراً وستّة أيام، وكان أسمر، تام القامة، طويل اللحية.

وكان سبب موته أنّه مرض واشتدّ مرضه، وكان قد خافه أستاذ الدار عضُد الدين أبو الفَرَج بن رئيس الرؤساء، وقُطْب الدين قايماز المقتَفَوي، وهو حينئذٍ أكبر أمير ببغداد، فلما اشتد مرض الخليفة اتّفقا، ووضعا الطبيب على أن يصف له ما يؤذيه، فوصف له دخول الحمّام، فامتنع لضعفه، ثمّ إنّه دخل وأغلق عليه بابه فمات.

وهكذا سمعتُه من غير واحد ممّن يعلم الحال، وقيل إنّ الخليفة كتب إلى وزيره مع طبيبه ابن صفية يأمره بالقبض على أستاذ الدّار وقُطْب الدين وصلبهما، فاجتمع ابن صفيّة بأستاذ الدار، وأعطاه خطّ الخليفة، فقال له: تعود وتقول إنّني أوصلتُ الخطّ إلى الوزير؛ ففعل ذلك، وأحضر أستاذ الدار قطب الدين ويزدن وأخاه تنامش، وعرض الخط عليهم، فاتّفقوا على قتل الخليفة، فدخل إليه يزدن وقايماز الحميدي، فحملاه إلى الحمام وهو يستغيث وألقياه، وأغلقا الباب عليه وهو يصيح إلى أن مات، رحمه الله.

وكان وزيره حينئذٍ أبا جعفر بن البلديّ، وبينه وبين أستاذ الدار عضُد الدين

---

(١) انظر عن (المستنجد بالله) في تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٦ هـ) ص ٢٣ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

عداوة مستحكمة، لأن المستنجد بالله كان يأمره بأشياء تتعلّق بهما فيفعلها[١]، فكانا يظنّان أنه هو الذي يسعى بهما، فلما مرض المستنجد، وأرجف بموته، ركب الوزير ومعه الأمراء والأجناد وغيرهم بالعُدة، فلم يتحقق عنده خبر موته، فأرسل إليه عضُد الدين يقول: إن أمير المؤمنين قد خفّ ما به من المرض، وأقبلت العافية، فخاف الوزير أن يدخل دار الخلافة بالجُند، فربما أُنكر عليه ذلك. فعاد إلى داره وتفرّق الناس عنه. وكان عضد الدين وقُطْب الدين قد استعدّا للهرب لمّا ركب الوزير خوفاً منه إن دخل الدار أن يأخذهما، فلما عاد أغلق أستاذ الدار أبواب الدار، وأظهروا وفاة المستنجد، وأحضر هو وقُطب الدين ابنه أبا محمد الحسن، وبايعاه بالخلافة، ولقبّاه المستضيء بأمر الله، وشرطا عليه شروطاً[٢] أن يكون عضُد الدين وزيراً، وابنه كمال الدين أستاذ الدار، وقُطب الدّين أمير العسكر، فأجابهم إلى ذلك.

ولم يتولّ الخلافة من اسمه الحسن إلا الحسن بن علي بن أبي طالب والمستضيء بأمر الله، واتفقا في الكُنْية والكَرَم، فبايعه أهل بيته الخاصّة يوم تُوفّي أبوه، وبايعه الناس من الغد في التاج بيعةً عامة، وأظهر من العدل أضعاف ما عمل أبوه، وفرّق أموالاً جليلة المقدار.

وعلم الوزير ابن البلديّ فسُقط في يده وقرع سنّه ندماً على ما فرط في عوده حيث لا ينفعه، وأتاه من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضيء، فمضى إلى دار الخلافة، فلمّا دخلها صرف إلى موضع وقُتل وقُطّع قِطَعاً، وأُلقي في دجلة، رحمه الله، وأُخذ جميع ما في داره، فرأيا فيها خطوط المستنجد بالله يأمره فيها بالقبض عليهما، وخطّ الوزير قد راجعه في ذلك. وصرفه عنه، فلمّا وقفا عليهما عرفا براءته مما كانا يظنان فيه، فندما حيث فرّطا في قتله.

وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعيّة، عادلاً فيهم، كثير الرفق بهم، وأطلق كثيراً من المكوس، ولم يترك بالعراق منها شيئاً، وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس.

بلغني أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس، فأطال حبسه، فشفع فيه بعض

---

(١) في الأوربية: «فيفعلهما».

(٢) في (ب): «شروطاً منها».

أصحابه المختصّين بخدمته، وبذل عنه عشرة آلاف دينار، فقال: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي إنساناً آخر مثله لأكفّ شره عن الناس؛ ولم يُطْلِقه. وردّ كثيراً من الأموال على أصحابها، وقبض على القاضي ابن المرخّم، وأخذ منه مالاً كثيراً، فأعاده على أصحابه أيضاً، وكان ابن المرخّم ظالماً جائراً في أحكامه[1].

ذكر مُلك نور الدين الموصل وإقرار سيف الدين عليها

لما بلغ نور الدين محموداً[2] وفاة أخيه قُطْب الدين مودود، صاحب الموصل، ومُلك ولده سيف الدّين غازي الموصل والبلاد التي كانت لأبيه، بعد وفاته، وقيام فخر الدين عبد المسيح بالأمر معه، وتحكّمه عليه، أنِف لذلك وكبُر لديه وعَظُم عليه، وكان يبغض فخر الدين لما يبلغه عنه من خشونة سياسته، فقال: أنا أولى بتدبير أولاد أخي وملكهم؛ وسار عند انقضاء العزاء جريدةً في قلّة من العسكر، وعبر الفرات[3]، عند قلعة جَعْبَرَ، مستهلّ المحرّم من هذه السنة، وقصد الرَّقة فحصرها وأخذها.

ثم سار إلى الخابور فملكه جميعه، وملك نصيبين وأقام بها يجمع العساكر، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود، صاحب حصن كيفا، وكثُر جَمْعه، وكان قد ترك أكثر عساكره بالشام لحفظ ثغوره، فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها، ونصب عليها المجانيق وملكها، وسلّمها إلى عماد الدين ابن أخيه قُطْب الدين.

وكان قد جاءته كُتب الأمراء الذين بالموصل سرّاً، يبذلون له الطاعة ويحثّونه على الوصول إليهم، فسار إلى الموصل فأتى مدينة بلد، وعبر دجلة عندها مخاضة إلى الجانب الشرقيّ، وسار فنزل شرق الموصل على حصن نِينَوى، ودجلة بينه وبين الموصل. ومن العجب أنّ يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة.

وكان سيف الدين غازي وفخر الدين قد سيّرا عز الدين مسعود بن قُطب الدين إلى أتابك شمس الدين إيلدكز، صاحب همذان وبلد الجبل، وأَذَرْبِيجان، وأصفهان، والريّ وتلك الأعمال يستنجده على عمّه نور الدين، فأرسل إيلدكز رسولاً إلى نور

---

(١) التاريخ الباهر ١٥٠ ـ ١٥٢.

(٢) في الأوربية: «محمود».

(٣) في الأوربية: «الفراة».

الدين ينهاه عن التعرّض إلى الموصل، ويقول له: إن هذه البلاد للسلطان، فلا تقصدها؛ فلم يلتفت إليه، وقال للرسول: قل لصاحبك أنا أصلح لأولاد أخي منك، فلم تُدخل نفسك بيننا؟ وعند الفراغ من إصلاح بلادهم يكون الحديث معك على باب همذان، فإنك قد ملكت هذه المملكة العظيمة، وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها، وقد بُليت أنا، ولي مثل ربع بلادك، بالفرنج، وهم أشجع العالم، فأخذت معظم بلادهم، وأسرت ملوكهم، ولا يحلّ لي السكوت عنك، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت وإزالة الظلم عن المسلمين.

فأقام نور الدين على الموصل، فعزم من بها من الأمراء على مجاهرة[1] فخر الدين عبد المسيح بالعصيان، وتسليم البلد إلى نور الدين، فعلم ذلك، فأرسل إلى نور الدين في تسليم البلد إليه على أن يقرّه بيد سيف الدّين، ويطلب لنفسه الأمان ولماله، فأجابه إلى ذلك، وشرط أن فخر الدين يأخذه معه إلى الشام، ويعطيه عنده إقطاعاً يرضيه، فتسلّم البلد ثالث عشر جُمادى الأولى من هذه السنة، ودخل القلعة من باب السر لأنه لما بلغه عصيان عبد المسيح عليه حلف أن لا يدخلها إلا من أحصن موضع فيها، ولما ملكها أطلق ما بها من المكوس وغيرها من أبواب المظالم، وكذلك فعل بنصيبين وسِنجار والخابور، وهكذا كان جميع بلاده من الشام ومصرَ.

ووصله، وهو على الموصل يحاصرها، خِلعة من الخليفة المستضيء بأمر الله، فلبسها، ولما ملك الموصل خلعها على سيف الدين ابن أخيه، وأمره وهو بالموصل بعمارة الجامع النوري، وركب هو بنفسه إلى موضعه فرآه، وصعد منارة مسجد أبي حاضر فأشرف منها على موضع الجامع، فأمر أن يضاف إلى الأرض التي شاهدها ما يجاورها من الدُّور والحوانيت، وأن لا يؤخذ منها شيء بغير اختيار أصحابه. وولّى الشيخ عمر الملاّ عمارته، وكان من الصالحين الأخيار، فاشترى الأملاك من أصحابها بأوفر الأثمان، وعمره، فخرج عليه أموال كثيرة، وفرغ من عمارته سنة ثمانٍ وستين وخمسمائة.

وعاد إلى الشام، واستناب في قلعة الموصل خصيّاً كان له اسمه كُمُشْتِكين، وَلَقَبُه سعد الدّين، وأمر سيف الدين أن لا ينفرد عنه بقليل من الأمور ولا بكثير،

---

(١) في (أ): «مخامرة».

وحكمه [في البلاد] وأقطع مدينة سِنجار لعماد الدين ابن أخيه قُطب الدين، فلمّا فعل ذلك قال كمال الدين بن الشهرزوري: هذا طريق إلى أذًى يحصل لبيت أتابك لأن عماد الدين كبير لا يرى طاعة سيف الدين، [وسيف الدين][1] هو الملك لا يرى الإغضاء لعماد الدين فيحصل الخُلْف، ويطمع الأعداء، فكان كذلك على ما نذكره سنة سبعين وخمسمائة، وكان مُقام نور الدين بالموصل أربعة وعشرين يوماً، واستصحب معه فخر الدين عبد المسيح، وغيّر اسمه فسمّاه عبد الله، وأقطعه إقطاعاً كبيراً[2].

ذكر غزوة صلاح الدين بلاد الفرنج وفتح أيْلَة

وفي هذه السنة سار صلاح الدين أيضاً عن مصر إلى بلاد الفرنج، فأغار على أعمال عَسقلان والرّملة، وهجم على ربَض غَزّة فنهبه، وأتاه ملك الفرنج في قلة من العسكر مسرعين لردّه عن البلاد، فقاتلهم وهزمهم، وأفلت ملك الفرنج بعد أن أشرف أن يؤخذ أسيراً، وعاد إلى مصر، وعمل مراكب مفصّلة، وحملها قطعاً على الجمال في البرّ، وقصد أيْلة، فجمع قطع المراكب وألقاها في البحر، وحصر أيْلَة برّاً وبحراً وفتحها في العَشْر الأوّل من ربيع الآخر، واستباح أهلها وما فيها وعاد إلى مصر[3].

ذكر ما اعتمده صلاح الدين بمصر هذه السنة

كان بمصر دار للشحنة تُسمّى دار المعونة يحبس فيها من يريد حبسه، فهدمها صلاح الدين، وبناها مدرسة للشافعيّة، وأزال ما كان فيها[4] من الظلم، وبنى دار

---

(١) من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

(٢) سنا البرق الشامي ٩٦ ـ ٩٧، النوادر السلطانية ٤٤، التاريخ الباهر ١٥٢ ـ ١٥٤، تاريخ مختصر الدول ٢١٤، تاريخ الزمان ١٨٤ ـ ١٨٥، الأعلاق الخطيرة ج ٢ ق ٥٧/١، الروضتين ج ١ ق ٤٧٧/٢ ـ ٤٨٠، زُبدة الحلب ٢٣٢/٣، نهاية الأرب ١٦٣/٢٧، المختصر في أخبار البشر ٥٠/٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٦ هـ) ص ٢٤ ـ ٢٥، العبر ١٩٢/٤، تاريخ ابن الوردي ٧٨/٢، البداية والنهاية ٢٦٣/١٢، الكواكب الدرية ١٩٠ ـ ١٩١، تاريخ ابن سباط ١٢٩/١.

(٣) سنا البرق الشامي ١٠٨/١ ـ ١٠٩، مفرّج الكروب ١٩٨/١ ـ ١٩٩، الروضتين ج ١ ق ٤٨٦/٢ ـ ٤٩٠، و٤٩١، المختصر في أخبار البشر ٥٠/٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٦ هـ) ص ٢٧، تاريخ ابن الوردي ٧٨/٢، البداية والنهاية ٢٦٣/١٢، الدر المطلوب ٤٧، الكواكب الدرية ١٩٤ ـ ١٩٥، إتعاظ الحنفا ٣٢٠/٣، النجوم الزاهرة ٣٨٥/٥ ـ ٣٨٦، شفاء القلوب ١٧٤، تاريخ ابن سباط ١٣٠/١، تاريخ ابن الفرات، مجلد ٤ ج ١٢٦/١ ـ ١٢٧.

(٤) في الأوربية: «فيه».

العدل مدرسة للشافعيّة أيضاً، وعزل قُضاة المصريّين، وكانوا شيعة، وأقام قاضياً شافعياً في مصر، فاستناب القضاة الشافعيّة في جميع البلاد في العشرين من جُمادى الآخرة[(١)].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة اشترى تقيّ الدين عمر ابن أخي صلاح الدين منازل العزّ[(٢)] بمصر، وبناها مدرسة للشافعيّة[(٣)].

وفيها أغار شمس الدولة تُورانشاه أخو صلاح الدين أيضاً على الأعراب الذين بالصعيد، وكانوا قد أفسدوا في البلاد، ومدّوا أيديهم، فكفّوا عمّا كانوا يفعلونه[(٤)].

وفيها مات القاضي ابن الخلّال من أعيان الكتّاب المصريّين وفُضلائهم، وكان صاحب ديوان الإنشاء بها[(٥)].

وفيها وقع حريق ببغداد في درب المطبخ، وفي خرابة[(٦)] ابن جُرْدة[(٧)].

---

(١) سنا البرق الشامي ١/١٠٧، مفرّج الكروب ١/٩٨، الروضتين ج ١ ق ٢/٤٨٦، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٦٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٦ هـ) ص ٢٦ ـ ٢٧، البداية والنهاية ١٢/٢٦٣، إتعاظ الحنفا ٣/٣١٩، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٨٥، بدائع الزهور ج ١ ق ١/ ٢٣٠، تاريخ ابن الفرات، مجلد ٤ ج ١/ ١٢٥.

(٢) في الباريسية: «العر».

(٣) سنا البرق الشامي ١/ ١١٠، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٤٨٧، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٨٣، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٦٣، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٠، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٦ هـ) ص ٢٧ ـ ٢٨، البداية والنهاية ١٢/ ٢٦٣، إتعاظ الحنفا ٣/ ٣١٠، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٨٦، تاريخ ابن الفرات، مجلد ٤ ج ١/ ٢٨.

(٤) سنا البرق الشامي ١/ ١١٠.

(٥) انظر عن (ابن الخلّال) في: سنا البرق الشامي ١/ ١١٠، وخريدة القصر (قسم مصر) ١/ ٢٣٥ ـ ٢٣٧، ووفيات الأعيان ٦/ ٢١٩ ـ ٢٢٤، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٠٥ رقم ٣٢١، والعبر ٤/ ١٩٤، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٢١، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٦٤، وعقد الجمان ١٢/ ورقة ١٦٥ أ، ب، وعيون التواريخ ١٧/ ورقة ١٣٢ ب ـ ١٣٥ أ، وحسن المحاضرة ٢/ ٢٣٣، وشذرات الذهب ٤/ ٢١٩.

(٦) في الباريسية: «خربة» وفي النسخة رقم ٧٤٠ «حرابة بن».

(٧) الخبر في المنتظم ١٠/ ٢٣٢ (١٨/ ١٩٠).

[الوفيات]

وفيها تُوفي الأمير نصر[1] بن المستظهر بالله، عمّ المستنجد بالله وحَمُوه، وهو آخر من مات من أولاد المستظهر بالله، وكان موته في ذي القعدة، ودُفن في التُرَب بالرُّصافة[2].

وفيها جُعل ظهير الدين أبو بكر نصر بن العطّار صاحب المخزن ببغداد، ولُقّب ظهير الدين[3].

وفيها حجّ بالناس الأمير طاشتِكِين المستنجديّ، وكان نِعْم الأمير، رحمه الله.

---

(١) في المنتظم: «أبو نصر».
(٢) المنتظم ١٨/ ١٩٤ ـ ١٩٥ رقم ٤٢٨٨.
(٣) المنتظم ١٨/ ١٩١ ـ ١٩٣.

٥٦٧
ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

ذكر إقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلويّة[(١)]

في هذه السنة، في ثاني جمعة من المحرّم، قُطعت خطبة العاضد لدين الله أبي محمد الإمام عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم محمد بن المستنصر بالله أبي تميم معدّ بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن عليّ بن الحاكم بأمر الله أبي عليّ المنصور بن العزيز بالله أبي منصور بن نزار بن المعزّ لدين الله أبي تميم مَعَدّ بن المنصور بالله أبي الظاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمّد بن المهديّ بالله أبي محمد عُبيد الله، وهو أوّل العلويّين من هذا البيت الذين خُطب لهم بالخلافة، وخوطبوا بإمرة المؤمنين.

وكان سبب الخطبة العبّاسيّة بمصر أن صلاح الدّين يوسف بن أيّوب لما ثبت قدمه بمصر وزال المخالفون له؛ وضعُف أمر الخليفة بها العاضد، وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش، وهو خَصِيّ، كان من أعيان الأمراء الأسديّة، كلّهم يرجعون إليه، فكتب إليه نور الدين محمود بن زنكي يأمره بقطع الخطبة العاضديّة وإقامة الخطبة المستضيئية، فامتنع صلاح الدين، واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليه لميلهم إلى العلويين.

---

(١) انظر عن انقطاع الخطبة للفاطميين في: سنا البرق الشامي ١/ ١١١، والنوادر السلطانية ٣٥، والتاريخ الباهر ١٥٧، وزبدة الحلب ٣/ ٣٣٣، والروضتين ج ١ ق ٢/ ٤٩٢ ـ ٤٩٤، وتاريخ الزمان ١٨٧، ومفرّج الكروب ١/ ٢٠٠ ـ ٢١٦، والمغرب في حلى المغرب ١٤١، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٠ ـ ٥١، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٧ هـ) ص ٣٥، والعبر ٤/ ١٩٤ ـ ١٩٥، ودول الإسلام ٢/ ٨٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٧٩، ومرآة الجنان ٣/ ٣٧٩، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٦٤، ومآثر الإنافة ٢/ ٥١، والسلوك ج ١ ق ١/ ٤٤، وإتعاظ الحنفا ٣/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦، وشفاء القلوب ٧٥ ـ ٧٦، والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٥٥ ـ ٣٥٧، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٣٠ ـ ١٣١، وبدائع الزهور ج ١ ق ١/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم، ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين، فإنه كان يخافه أن يدخل إلى الديار المصرية يأخذها منه، فكان يريد [أن] يكون العاضد معه، حتى إذا قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه؛ فلمّا اعتذر إلى نور الدين بذلك لم يقبل عذره، وألحّ عليه بقطع خطبته، وألزمه إلزاماً لا فسحة له في مخالفته، وكان على الحقيقة نائب نور الدين، واتّفق أنّ العاضد مرض هذا الوقت مرضاً شديداً، فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار أمراءه، فمنهم من أشار به ولم يُفكر في المصريّين، ومنهم من خافهم إلا أنّه ما يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين.

وكان قد دخل إلى مصر إنسانٌ أعجميّ يُعرف بالأمير العالم، رأيته أنا بالموصل، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام، وأن أحداً لا يتجاسر [أن] يخطب للعبّاسيّين قال: أنا أبتدىء بالخطبة لهم؛ فلما كان أوّل جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله فلم ينكر أحد ذلك، فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة أن يقطعوا خطبة العاضد ويخطبوا للمستضيء، ففعلوا ذلك فلم ينتطح فيها عنزان، وكتب بذلك إلى سائر بلاد مصر، ففعل. وكان العاضد قد اشتدّ مرضُه فلم يُعلمه أحد من أهله وأصحابه بقطع الخطبة، وقالوا: إنْ عوفي فهو يعلم، وإن تُوفيّ فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته؛ فتُوفيّ يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة(١).

ولما تُوفي جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصر الخلافة، وعلى جميع ما فيه، فحفظه بهاء الدين قراقوش الذي كان قد رتّبه قبل موت العاضد، فحمل الجميع إلى صلاح الدين، وكان من كثرته يخرج عن الإحصاء، وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله، ومن الجواهر التي لم توجد عند أحد غيرهم، فمنه الجبل الياقوت، وزنه سبعة عشر درهماً، أو سبعة عشر مثقالاً، أنا لا أشكّ، لأنّني رأيتُه ووزنتُه؛ واللّؤلؤ الذي لم يوجد مثله، ومنه النصاب الزّمُرُد الذي طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير؛ ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد، وقد احتاطوا عليه بالحفظ، فلمّا رأوه ظنّوه عُمل لأجل اللّعب به، فسخروا

(١) الدر المطلوب ٤٨، الانتصار لابن دقماق ١/ ٩٣ ـ ٩٤، تحفة الأحباب للسخاوي ٧٤.

من العاضد، فأخذه إنسانٌ فضرب به فضرط فتضاحكوا منه، ثمّ آخر كذلك، وكان كلّ من ضرب به ضرط، فألقاه أحدهم فكسره فإذا الطبل لأجل قولنج فندموا على كسره لمّا قيل لهم ذلك.

وكان فيه من الكتب النفيسة المعدومة المثل ما لا يُعَدّ، فباع جميع ما فيه، ونقل أهل العاضد إلى موضع من القصر، ووكّل بهم من يحفظهم، وأخرج جميع من فيه من أَمَة وعبد، فباع البعض، وأعتق البعض، ووهب البعض، وخلّى القصر من سكّانه كأن لم يَغْنَ بالأمس، فسبحان الحيّ الدّائم الذي لا يزول مُلكه، ولا تغيّره الدّهور ولا يقرب النقص حماه.

ولما اشتدّ مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه، فظنّ ذلك خديعة، فلم يمضِ إليه، فلما تُوفيّ علم صدقه، فندم على تخلّفه عنه، وكان يصفه كثيراً بالكرم، ولين الجانب، وغلبة الخير على طبعه، وانقياده؛ وكان في نسبه تسعة[1] خُطب لهم بالخلافة وهم: الحافظ، والمستنصر، والظاهر، والحاكم، والعزيز، والمعزّ، والمنصور، والقائم، والمهديّ؛ ومنهم من لم يُخطب له بالخلافة: أبوه يوسف بن الحافظ، وجدّ أبيه، وهو الأمير أبو القاسم محمد بن المستنصر.

وبقي مَن خُطب له بالخلافة وليس من آبائه: المستعلي، والآمر، والظافر، والفائز.

وجميع مَن خُطب له منهم بالخلافة أربعة عشر خليفة منهم بإفريقية: المهديّ، والقائم، والمنصور، والمعزّ، إلى أن سار إلى مصر، ومنهم بمصر: المعزّ المذكور، وهو أوّل من خرج إليها من إفريقية، والعزيز، والحاكم، والظاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد، وجميع مدّة ملكهم من حين ظهر المهديّ بسِجِلماسة في ذي الحجّة من سنة تسعٍ وتسعين ومائتين إلى أن تُوفّي العاضد مائتان واثنتان وسبعون سنة وشهر[2] تقريباً.

وهذا دأب الدنيا لم تُعطِ إلا واستردّت، ولم تخلُ إلا وتمرّرت، ولم تصفُ إلا وتكدّرت، بل صفُوها لا يخلو من الكدر وكدرها قد يخلو من الصفو. نسأل الله تعالى

---

(١) في الأوربية: «تسع».
(٢) في الأوربية: «وشهراً».

أن يُقبل بقلوبنا إليه ويُرينا الدنيا حقيقة، ويُزهّدنا فيها، ويرغّبنا في الآخرة، إنّه سميع الدعاء قريب من الإجابة.

ولمّا وصلت البشارة إلى بغداد بذلك ضُربت البشائر بها عدّة أيام، وزُيّنت بغداد وظهر من الفرح والجذل ما لا حدّ عليه. وسُيّرت الخلع مع عماد الدين صندل، وهو من خواصّ الخدم المقتفويّة والمقدّمين في الدولة لنور الدين وصلاح الدين، فسار صندل إلى نور الدين وألبسه الخلعة، وسيّر الخلعة التي لصلاح الدين وللخُطباء بالديار المصريّة، والأعلام السود، ثمّ إنّ صَندلاً هذا[1] صار أستاذ دار الخليفة المستضيء بأمر الله ببغداد، وكان يدري الفقه على مذهب الشافعيّ، وسمع الحديث ورواه، ويعرف أشياء حسنة، وفيه دِين، وله معروف كثير، وهو من محاسن بغداد.

ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطناً

في هذه السنة جرت أمور أوجبت أن تأثّر نور الدين من صلاح الدّين، ولم يُظهر ذلك. وكان سببه أنّ صلاح الدين يوسف بن أيّوب سار عن مصر في صفر من هذه السنة إلى بلاد الفرنج غازياً، ونازل حصن الشّوبَك، وبينه وبين الكَرَك يوم، وحصره، وضيّق على من به من الفرنج، وأدام القتال، وطلبوا الأمان واستمهلوه عشرة أيام، فأجابهم إلى ذلك.

فلما سمع نور الدين بما فعله صلاح الدين سار عن دمشق قاصداً بلاد الفرنج أيضاً ليدخل إليها من جهة أخرى، فقيل لصلاح الدين: إن دخل نور الدين بلاد الفرنج، وهم على هذه الحال: أنت من جانب ونور الدين من جانب، ملكها، ومتى زال الفرنج عن الطريق وأُخذ ملكهم لم يبق بديار مصر مُقام مع نور الدين، وإن جاء نور الدين إليك وأنت هاهنا، فلا بُدّ لك من الاجتماع به، وحينئذٍ يكون هو المتحكّم فيك بما شاء، إن شاء تركك، وإن شاء عزلك، فقد لا تقدر على الامتناع عليه؛ والمصلحة الرجوع إلى مصر.

فرحل عن الشّوبَك عائداً إلى مصر، ولم يأخذه من الفرنج، وكتب إلى نور الدين يعتذر باختلال البلاد المصريّة لأمورٍ بَلَغَتْه عن بعض شيعته العلويّين، وأنهم

---

(١) في الأوربية: «هذا صندل».

عازمون على الوثوب بها، فإنّه يخاف عليها من البعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلّف بها فيخرجوهم وتعود ممتنعة، وأطال الاعتذار، فلم يقبلها نور الدين منه، وتغيّر عليه وعزم على الدُّخول إلى مصر وإخراجه عنها.

وظهر ذلك فسمع صلاح الدين الخبر، فجمع أهله، وفيهم أبوه نجم الدين أيوب، وخاله شهاب الدين الحارميّ، ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين وحركته إليه، واستشارهم، فلم يُجِبه أحدٌ بكلمة واحدة، فقام تقيّ الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فقال: إذا جاءنا قاتلناه، ومنعناه عن البلاد؛ ووافقه غيره من أهلهم، فشتمهم نجم الدين أيّوب، وأنكر ذلك، واستعظمه، وشتم تقي الدين وأقعده، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين، ونحن أكثر محبّة لك من جميع من ترى، ووالله لو رأيتُ أنا وخالك هذا نور الدين، لم يمكنا إلا أن نُقبّل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنّا نحن هكذا، فما ظنّك بغيرنا؟ وكلّ من تراه عندك من الأمراء لو رأوا نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم، وهذه البلاد له، ونحن مماليكه ونوّابه فيها، فإن أراد عزلك سمِعنا وأطعنا؛ والرأي أن تكتب كتاباً مع نجّاب تقول فيه: بلغني أنّك تريد الحركة لأجل البلاد، فأيّ حاجة إلى هذا؟ يرسل المولى نجّاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك، وما هاهنا من يمتنع عليك.

وأقام الأمراء وغيرهم وتفرّقوا على هذا، فلمّا خلا به أيّوب قال له: بأيّ عقل فعلتَ هذا؟ أما تعلم أنّ نور الدين إذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جَعَلَنا أهم الوجوه إليه، وحينئذٍ لا تقوى به، وأمّا الآن، إذا بلغه ما جرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا؛ والأقدار تعمل عملها. ووالله لو أراد نور الدين قصبةً من قصب السُّكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أُقتل[1].

ففعل صلاح الدين ما أشار به، فترك نور الدين قصده واشتغل بغيره، فكان الأمر كما ظنّه أيّوب، فتُوفي نور الدين ولم يقصده، وملك صلاح الدين البلاد، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها[2].

---

(١) في الأوربية: «وأُقتل».

(٢) التاريخ الباهر ١٥٨ ـ ١٥٩، زبدة الحلب ٣/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٥١٩، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٧ هـ) ص ٣٦، ودول الإسلام ٢/ ٨٠، والعبر =

ذكر غزوة إلى الفرنج بالشام

وفي هذه السنة خرج مركبان من مصر إلى الشام فأرسيا بمدينة لاذقيّة، فأخذهما الفرنج، وهما مملوءان من الأمتعة والتجار، وكان بينهم وبين نور الدين هدنة، فنكثوا وغدروا، فأرسل نور الدين إليهم في المعنى وإعادة ما أخذوه من أموال التُّجار، فغالطوه، واحتجّوا بأمورٍ منها أن المركبَين كانا قد انكسرا ودخلهما الماء.

وكان الشرط أنّ كلّ مركب ينكسر ويدخله الماء يأخذونه، فلم يقبل مغالطتهم، وجمع العساكر، وبثّ السرايا في بلادهم بعضها نحو أنطاكية، وبعضها نحو طرابلس، وحصر هو حصن عِرْقة، وخرّب رَبَضه، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصن صافيثا وعُرَيمة، فأخذهما عنوةً، ونهب وخرّب، وغنم المسلمون غنائم كثيرة، وعادوا إليه وهو بعِرْقة، فسار في العساكر جميعها إلى أن قارب طرابلس ينهب ويخرّب ويحرق ويقتل.

وأمّا الذين ساروا إلى أنطاكية ففعلوا في ولايتها مثل ما فعل في ولاية طرابُلس، فراسله الفرنج، وبذلوا إعادة ما أخذوه من المركبَين، وتجديد الهدنة معهم، فأجابهم إلى ذلك، وأعادوا ما أخذوا وهم صاغرون، وقد خربت بلادهم وغُنمت أموالهم[(١)].

ذكر وفاة ابن مردَنيش ومُلك يعقوب بن عبد المؤمن بلاده

في هذه السنة توفي الأمير محمد بن سعد بن مردنيش، صاحب البلاد بشرق الأندلس، وهي: مُرسِيَة وبَلَنْسِيَة وغيرهما، ووصّى أولاده أن يقصدوا بعد موته الأمير أبا يوسف يعقوب بن عبد المؤمن، صاحب الغرب والأندلس، وتسلّموا البلاد وتدخلوا في طاعته، فلما مات قصدوا يعقوب، وكان قد اجتاز إلى الأندلس في مائة ألف مقاتل قبل موت ابن مردنيش، فحين رآهم يوسف فرح بهم، وسرّه قدومهم عليه، وتسلّم بلادهم، وتزوّج أختهم، وأكرمهم، وعظّم أمرهم، ووصلهم بالأموال الجزيلة، وأقاموا معه[(٢)].

= ٤/١٩٥ ـ ١٩٦، تاريخ ابن الوردي ٢/٨٠، تاريخ ابن خلدون ٥/٢٥٠ ـ ٢٥١، البداية والنهاية ١٢/٢٦٨ ـ ٢٦٩، شفاء القلوب ٨١ ـ ٨٢، السلوك ج ١ ق ١/٤٨ ـ ٤٩.

(١) التاريخ الباهر ١٥٤، الروضتين ج ١ ق ٢/٥١٦، مفرّج الكروب ١/٢٢٠ وفيه «مركب» الأعلاق الخطيرة ج ٢ ق ٢/٩٤، زبدة الحلب ٢/٣٣٦، النوادر السلطانية ٤٥، تاريخ طرابلس (تأليفنا) ج ١/٥١٧.

(٢) انظر عن (ابن مردنيش) في: الحلّة السيراء ٢/٢٦٨، والمعجب للمراكشي ٣٠٦ وفيه وفاته سنة ٥٦٨ هـ، والإحاطة ٧/١٢٧، ونفخ الطيب ٦/١٦٠، ووفيات الأعيان ٧/١٣١، والاستقصا للسلاوي ٢/١٥٠.

ذكر عبور الخطا جيحون والحرب بينهم وبين خُوارزم شاه

في هذه السنة عبر الخَطَا نهر جَيْحون يريدون خُوارزم، فسمع صاحبها خُوارزم شاه أرسلان بن أتسِز، فجمع عساكره وسار إلى آمِويّة ليقاتلهم ويصدّهم، فمرض، وأقام بها، وسيّر بعض جيشه مع أميرٍ كبير إليهم، فلقيهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم الخُوارزميّون، وأُسر مقدّمهم، ورجع به الخَطَا إلى ما وراء النهر، وعاد خُوارزم شاه إلى خُوارزم مريضاً[1].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة اتّخذ نور الدين بالشام الحَمام الهوادي، وهي التي يقال لها المناسيب، وهي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، وجعلها في جميع بلاده.

وسبب ذلك أنه لمّا اتسعت بلاده، وطالت مملكته، وعرضت أكنافها، وتباعدت أوائلها عن أواخرها، ثم إنها جاورت بلاد الفرنج، وكانوا ربّما نازلوا حصناً من ثغوره، فإلى أن يصل الخبر، ويسير إليهم [يكونون] قد بلغوا غرضهم منه، فأمر بالحمام ليصل الخبر إليه في يومه، وأجرى الجرايات على المرتّبين لحفظها وإقامتها، فحصل منها الراحة العظيمة، والنفع الكبير للمسلمين[2].

وفيها عزل الخليفة المستضيء بأمر الله وزيره عضُد الدين أبا الفرج بن رئيس الرؤساء مُكرهاً لأن قطب الدين قَايماز ألزمه بعزله، فلم يمكنه مخالفته[3].

[الوفيات]

وفيها مات أبو محمد عبد الله بن أحمد الخشّاب اللُّغَويّ، وكان قيّماً بالعربية وسمع الحديث الكثير إلى أن مات.

وفيها مات البُوريّ الفقيه الشافعيّ، تفقّه على محمد بن يحيى، وقدم بغداد ووعظ، وكان يذم الحنابلة، وكثرت أتباعه، فأصابه إسهال، فمات هو وجماعة من

---

(١) تاريخ مختصر الدول ٢١٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٧ هـ) ص ٣٨.

(٢) الروضتين ج ١ ق ٢/ ٥٢٠ ـ ٥٢٢، سنا البرق الشامي ١/ ١١٩، التاريخ الباهر ١٥٩، البداية والنهاية ١٢/ ٢٦٩، عيون التواريخ ١٧/ ورقة ١٣٧ أ، ب، عقد الجمان ١٢/ ورقة ١٧٢ أ، ب.

(٣) المنتظم ١٨/ ١٩٧.

أصحابه، فقيل: إنّ الحنابلة أهدوا له حلواء فمات هو وكلّ من أكل منها.

وفيها مات القُرطُبي أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام الأزديّ، وكان إماماً في القراءة والنحو وغيره من العلوم، زاهداً عابداً، انتفع به الناس في الموصل، وفيها كانت وفاته.

٥٦٨

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

ذكر وفاة خُوارزم شاه أرسلان ومُلك ولده سلطان شاه وبعده ولده الآخر تُكش وقتل المؤيّد ومُلك ابنه

في هذه السنة تُوفي خُوارزم شاه[١] أرسلان بن أتسِز[٢] بن محمد بن أنُوشْتَكين، قد عاد من قتال الخطا مريضاً، فتُوفّي، وملك بعده سلطان شاه محمود، ودبّرت والدته المملكة والعساكر.

وكان ابنه الأكبر علاء الدين تُكش مقيماً في الجَنَد قد أقطعه أبوه إيّاها، فلما بلغه موت أبيه وتولية أخيه الصغير أنف من ذلك، وقصد ملك الخطا، واستمدّه على أخيه، وأطمعه في الأموال وذخائر خُوارزم، فسير معه جيشاً كثيفاً مقدّمهم قوماً، فساروا حتى قاربوا خوارزم، فخرج سلطان شاه وأمّه إلى المؤيّد، فأهدى له هديّة جليلة المقدار، ووعده أموال خُوارزم وذخائرها، فاغترّ بقوله، وجمع جيوشه وسار معه حتى بلغ سُوبَرْنَى، بُليدة على عشرين فرسخاً من خُوارزم، وكان تُكش قد عسكر بالقرب منها، فتقدّم إليهم، فلمّا تراءى الجمعان انهزم عسكر المؤيّد، وكُسر المؤيّد وأُخذ أسيراً، وجيء به إلى خُوارزم شاه تُكش، فأمر بقتله، فقُتل بين يديه صبراً.

وهرب سلطان شاه، وأُخذ إلى دِهِستان، فقصده، خُوارزم شاه تُكش، فافتتح المدينة عَنوةً، فهرب سلطان شاه وأُخذت أمّه فقتلها تُكش، وعاد إلى خُوارزم.

---

(١) انظر عن (خوارزم شاه) في: تاريخ مختصر الدول ٢١٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٢ ـ ٥٣، والعبر ٤/ ٢٠٢، ودول الإسلام ٢/ ٨١، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٨ هـ) ص ٤٠ ـ ٤١، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٨١، ومآثر الإنافة ٢/ ٥٥، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٨٣، ونهاية الأرب ٢٧/ ٢٠٢، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٣٢.

(٢) وقع في الجريدة الآسيوية (١٨٤٦) ج ٢/ ٤٧٣ «أنسز» بالنون، وهو تصحيف.

ولمّا عاذ المنهزمون من عسكر المؤيّد إلى نيسابور ملّكوا ابنه طُغان شاه أبا بكر بن المؤيّد، واتّصل به سلطان شاه، ثمّ سار من هناك إلى غياث الدّين ملك الغُوريّة، فأكرمه وعظّمه وأحسن ضيافته.

وأمّا علاء الدين تُكش، فإنّه لما ثبت قدمه بخُوارزم اتصّلت به رسل الخَطَا بالاقتراحات والتحكّم كعادتهم، فأخذته حميّة الملك والدين، وقتل أحد أقارب الملك، وكان قد ورد إليه ومعه جماعة أرسلهم ملكهم في مطالبة خُوارزم شاه بالمال، فأمر خُوارزم شاه أعيان[1] خُوارزم، فقتل كلّ واحد منهم رجلاً من الخَطا، فلم يسلم منهم أحد، ونبذوا إلى ملك الخطا عهده.

وبلغ ذلك سلطان شاه، فسار إلى ملك الخطا واغتنم الفرصة بهذه الحال واستنجده على أخيه علاء الدين تُكش، وزعم له أنّ أهل خُوارزم معه يريدونه، ويختارون مُلكه عليهم، ولو رأوه لسلّموا البلد إليه، فسيّر معه جيشاً كثيراً من الخطا مع قوما أيضاً، فوصلوا إلى خُوارزم، فحصروها، فأمر خُوارزم شاه علاء الدين بإجراء ماء جيحون عليهم فكادوا يغرقون، فرحلوا ولم يبلغوا منها غرضاً، ولحِقهم الندم حيث لم ينفعهم، ولاموا سلطان شاه وعنّفوه، فقال لقوما: لو أرسلت معي جيشاً إلى مَرْوَ لاستخلصتُها من يد دينار الغُزّيّ؛ وكان قد استولى عليها من حين كانت فتنة الغُزّ إلى الآن، فسيّر معه جيشاً، فنزل على سَرْخَس على غِرّة من أهلها، وهجموا على الغزّ فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، فلم يتركوا بها أحداً منهم، وألقى دينار ملكهم نفسه في خندق القلعة، فأُخرج منه، ودخل القلعة وتحصّن بها.

وسار سلطان شاه إلى مرو فملكها، وعاد الخطا إلى ما وراء النهر، وجعل سلطان شاه دأبه قتال الغزّ وقصدهم، والقتل فيهم، والنهب منهم، فلمّا عجز دينار عن مقاومته أرسل إلى نَيسابور إلى طُغان شاه بن المؤيّد يقول له ليرسل إليه من يسلّم إليه قلعة سَرْخَس، فأرسل إليه جيشاً مع أمير اسمه قراقوش، فسلّم إليه دينار القلعة ولحِق بطُغان شاه، فقصد سلطان شاه سَرْخَس وحصر قلعتها، وبلغ ذلك طُغان شاه، فجمع جيوشه وقصد سرْخس، فلمّا التقى هو وسلطان شاه فرّ طُغان شاه إلى نيسابور، وذلك سنة ستّ وسبعين وخمسمائة، فأخلى قراقوش قلعة سَرخَس ولحق بصاحبه، وملكها

---

(١) في (أ): «في مطالبته خوارزم شاه بالمال وأمر أعيان».

سلطان شاه، ثمّ أخذ طوس، والزام، وضيّق الأمر على طُغان شاه بعُلوّ همّته، وقلّة قراره، وحرصه على طلب الملك.

وكان طُغان شاه يحبُّ الدَّعة ومعاقرة الخمر، فلم يزل الحال كذلك إلى أن مات طُغان شاه سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة في المحرّم، وملك ابنه سنجر شاه، فغلب عليه مملوك جدّه المؤيّد، اسمه مَنْكَلي تَكين[1]، فتفرّق الأمراء أنفةً من تحكّمه، واتّصل أكثرهم بسلطان شاه، وسار الملك دينار إلى كرمان، ومعه الغُزّ، فملكها.

وأمّا مَنكَلي تَكِين فإنّه أساء السيرة في الرعيّة، وأخذ أموالهم، وقتل بعض الأمراء، فسمع خُوارزم شاه بذلك، فسار إليه فحصره بنيسابور في ربيع الأوّل سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، فحصرها شهرين فلم يظفر بها وعاد إلى خُوارزم، ثمّ رجع سنة ثلاثٍ وثمانين إلى نيسابور فحصرها، وطلبوا منه الأمان، فأمّنهم، فسلّموا البلد إليه، فقتل منكلي تَكِين وأخذ سنجر شاه وأكرمه، وأنزله بخُوارزم، وأحسن إليه، فأرسل إلى نَيسابور يستميل أهلها ليعود إليهم، فسمع به خُوارزم شاه، فأخذ سنجر شاه فسمَلَه، وكان قد تزوّج بأمه وزوّجه بابنته، فماتت، فزوّجه بأخته، وبقي عنده إلى أن مات سنة خمس وتسعين وخمسمائة.

ذكر هذا أبو الحسن بن أبي القاسم البَيهقيّ في كتاب «مشارب التجارب»، وقد ذكر غيره من العلماء بالتواريخ هذه الحوادث مخالفة لهذا في بعض الأمور مع تقديم وتأخير، ونحن نوردها، فقال إنّ تُكش خُوارزم شاه ايل أرسلان أخرج أخاه سلطان شاه من خُوارزم، وكان قد ملكها بعد موت أبيه، فجاء إلى مرو فملكها وأزاح الغُزّ عنها، فخرجوا أيّاماً، ثمّ عادوا عليه فأخرجوه منها، وانتهبوا خزانته، وقتلوا أكثر رجاله، فعبر إلى الخطا فاستنجدهم، وضمن لهم مالاً، وجاء بجيش عظيم فأخرج الغُزّ عن مرو، وسَرْخَس، ونَسا، وأبيوَرْد، وملكها وردّ الخَطا.

فلما أبعدوا كاتب غياث الدين الغُوريّ يطلب منه أن ينزل عن هَراة وبُوشَنْج وباذَغِيس وما والاها، ويتوعّده إن هو لم ينزل عن ذلك، فأجابه غياث الدين يطلب منه إقامة الخطبة له بمرو وسرخس وما ملكه من بلاد خُراسان، فلمّا سمع الرسالة سار عن مرو وشنّ الغارات على باذغيس وبَيْوَار وما والاها، وحصر بُوشَنج ونهب

---

(١) في (أ): «منكتكين».

الرساتيق، وصادر الرعايا، فلما سمع غياث الدين ذلك لم يرضَ لنفسه أن يسير هو بل سيّر ملك سِجِستان، وكاتب ابن أخته بهاء الدين سام، صاحب باميان، باللّحاق به، لأنّ أخاه شهاب الدين كان بالهند، والزمان شتاء، فجاء بهاء الدين ابن أخت غياث الدين وملكُ سجستان ومن معهما من العساكر، ووافق ذلك وصول سلطان شاه إلى هراة، فلمّا علم بوصولهم عاد إلى مرو من غير أن يقاتلهم، وأحرق كلّ ما مرّ به من البلاد ونهبه، وأقام بمرو إلى الربيع، وأعاد مراسلة غياث الدين في المعنى، فأرسل إلى أخيه شهاب الدين يعرّفه الحال، فنادى في عساكره الرحيل لساعته، وعاد إلى خُراسان، واجتمع هو وأخوه غياث الدين وملكُ سجستان وغيرهم من العساكر، وقصدوا سلطان شاه، فلمّا علم ذلك جمع عساكره واجتمع عليه، من الغُزّ والمفسدين، وقُطّاع الطريق، ومَن عنده طمع، خلق كثير، فنزل غياث الدين ومن معه في الطالقان، ونزل سلطان شاه بمرو الروذ، وتقدّم عسكر الغُوريّة إليه، وتواعدوا للمصاف.

وبقوا كذلك شهرين والرسل تتردّد بين غياث الدين وبين سلطان شاه، وشهاب الدين يطلب من أخيه غياث الدين الإذْن في الحرب، فلا يتركه، وتقرّر الأمر على أن يسلّم غياث الدين إلى سلطان شاه بُوشنج وباذغيس وقلاع بَيوار، وكره ذلك شهاب الدين وبهاء الدين سام، صاحب باميان، إلا أنهما لم يخالفا غياث الدين؛ وفي آخر الأمر حضر رسول سلطان شاه عند غياث الدين، وحضر الأمراء ليكتب العهد، فقال للرسول: إن سلطان شاه يطلب أن يحضر شهاب الدين وبهاء الدين هذا الأمر؛ فأرسل غياث الدين إليهما، فأعادا الجواب: إننا مماليكك، ومهما تفعل لا يمكننا مخالفتك.

فبينما الناس مجتمعون في تحرير الأمر وإذ قد أقبل مجد الدين العلويّ الهرويّ، وكان خصيصاً بغياث الدين بحيث يفعل في ملكه ما يختار فلا يخالف، فجاء العلويّ ويده في يد ألْب غازي ابن أخت غياث الدين، وقد كتبوا الكتاب، وقد أحضر غياث الدين أخاه شهاب الدين وبهاء الدين سام ملك الباميان، فجاء العلويّ كأنه يُسارّ غياث الدين، ووقف في وسط الحلقة، وقال للرسول: يا فلان! تقول لسلطان شاه: قد تمّ لك الصلح من جانب السلطان الأعظم، ومن شهاب الدين، وبهاء الدين، ويقول لك العلويّ خصمك: أنا ومولانا ألْب غازي بيننا وبينك السيف؛ ثمّ صرخ صرخة ومزّق ثيابه، وحثا التراب على رأسه وأقبل على غياث الدين، وقال له: هذا واحدٌ طرده

أخوه، وأخرجه فريداً وحيداً، لِمَ تترك له ما ملكناه بأسيافنا من الغُزّ والأتراك السَّنْجَرِيّة؟ فإذا سمع هذا عنّا يجيء أخوه يطلب منازعته الهند وجميع ما بيدك؛ فحرّك غياث الدين رأسه ولم يتفوّه بكلمة، فقال ملك سجستان للعلويّ: اترك الأمر ينصلح.

فلمّا لم يتكلم غياث الدين مع العلويّ قال شهاب الدين لجاووشيته: نادوا في العسكر بالتّجهّز للحرب، والتقدّم إلى مرو الرُّوذ؛ وقام، وأنشد العلويّ بيتاً من الشعر عجميّاً[1] معناه: إنّ الموت تحت السيوف أسهل من الرضى بالدّنِية؛ فرجع الرسول إلى سلطان شاه وأعلمه الحال، فرتّب عساكره للمصافّ، والتقى الفريقان واقتتلوا، فصبروا للحرب، فانهزم سلطان شاه وعسكره، وأُخذ أكثر أصحابه أسرى، فأطلقهم غياث الدين، ودخل سلطان شاه مرو في عشرين فارساً، ولحق به من أصحابه نحو ألف وخمسمائة فارس.

ولمّا سمع خُوارزم شاه تُكش بما جرى لأخيه سار من خُوارزم في ألفَيْ فارس وأرسل إلى جيحون ثلاثة آلاف فارس يقطعون الطريق على أخيه إن أراد الخطا، وجدّ في السير ليقبض على أخيه قبل أن يقوى، فأتت الأخبار سلطان شاه بذلك، فلم يقدر على عبور جيحون إلى الخَطا، فسار إلى غياث الدين وكتب إليه يعلمه قصده إليه، فكتب إلى هراة وغيرها من بلاده بإكرامه واحترامه وحمل الإقامات إليه، ففعل به ذلك، وقدم على غياث الدين، والتقاه، وأكرمه وأنزله معه في داره، وأنزل أصحاب سلطان شاه كلّ إنسان منهم عند مَن هو في طبقته، فأنزل الوزير عند وزيره، والعارض عند عارضه، وكذلك غيرهم، وأقام عنده حتى انسلخ الشتاء فأرسل علاء الدين بن خُوارزم شاه إلى غياث الدين يذكّره ما صنعه أخوه سلطان شاه معه من تخريب بلاده، وجمع العساكر عليه، ويشير بالقبض عليه وردّه إليه، فأنزل الرسول، وإذ قد أتاه كتاب نائبه بهراة يخبره أنّ كتاب خُوارزم شاه جاءه يتهدّده، فأجابه أنه لا يُظهر لخُوارزم شاه أنّه أعلمه بالحال، وأحضر الرسول، وقال له: تقول لعلاء الدين: أمّا قولك إنّ سلطان شاه أخرب البلاد وأراد مُلكها، فَلَعَمْري إنّه ملكٌ وابن ملكٍ وله همّة عالية، وإذا أراد المُلك، فمثله أراده، وللأمور مدبّر يوصلها إلى مستحقّها، وقد التجأ إليّ، وينبغي أن تنزاح عن بلاده، وتعطيه نصيبه ممّا خلّف أبوه، ومن الأملاك التي خلّف، والأموال،

(١) في (أ): «علوياً».

وأحلف لكما يميناً على المودة والمصافاة، وتخطب لي بخوارزم وتزوّج أخي شهاب الدين بأختك.

فلمّا سمع خُوارزم شاه الرسالة امتعض لذلك وكتب إلى غياث الدين كتاباً يتهدّده بقصد بلاده، فجهّز غياث الدين العساكر مع ابن أخت ألْب غازي وصاحب سجِستان، وسيّرهما مع سلطان شاه إلى خُوارزم، وكتب إلى المؤيّد صاحب نيسابور يستنجده، وكان قد صار بينهما مصاهرة: زوّج المؤيّد ابنه طُغان شاه بابنة غياث الدين، فجمع المؤيّد عساكره، وأقام بظاهر نيسابور على طريق خُوارزم.

وكان خُوارزم شاه قد سار عن خُوارزم إلى لقاء عسكر الغوريّة الذين مع أخيه سلطان شاه، وقد نزلوا بطرف الرمل، فبينما هو في مسيره أتاه خبر المؤيّد أنه قد جمع عساكره، وأنه على قصد خُوارزم إذا فارقها، فسقط في يديه وعاد فوقع في قلبه، وعاد إلى خُوارزم فأخذ أمواله وذخائره وعبر جيحون إلى الخطا، وأخلى[1] خُوارزم فوقع بها خبطٌ عظيمٌ، فحضر جماعة من أعيانها عند ألب غازي وسألوه إرسال أمير معهم يضبط البلد، فخاف أن تكون مكيدة، فلم يفعل.

فبينما هم في ذلك تُوفّي سلطان شاه، سلخ رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة، فكتب ألْب غازي إلى غياث الدين يُعلمه الخبر، فكتب إليه يأمره بالعود إليه، فرجع ومعه أصحاب سلطان شاه، فأمر غياث الدين بأن يُستخدموا، وأقطع الأجناد الإقطاعات الجيّدة، وكلّهم قابل إحسانه بكفران، وسنذكر باقي أخبارهم.

ولمّا سمع خُوارزم شاه تُكش بوفاة أخيه عاد إلى خُوارزم، وأرسل إلى سَرخَس ومرو شحناء، فجهّز إليهم أمير هَراة عمر المرغني[2] جيشاً فأخرجوهم[3]، وقال[4]: حتى نستأذن السلطان غياث الدين؛ وأرسل خُوارزم شاه رسولاً إلى غياث الدين يطلب الصلح والمصاهرة، وسيّر مع رسوله جماعة من فقهاء خُراسان والعلويّين، ومعهم وجيه الدين محمد بن محمود، وهو الذي جعل غياث الدين شافعيّاً، وكان له عنده

---

(١) في الأوربية: «وأخلا».

(٢) في الباريسية: «المرعبي».

(٣) في الباريسية: «فأخرجهم».

(٤) في الباريسية: والنسخة رقم ٧٤٠ «وقالوا».

منزلة كبيرة، فوعظوه، وخوّفوه الله تعالى، وأعلموه أن خُوارزم شاه يراسلهم ويتهدّدهم بأنّه يجيء بالأتراك والخَطا ويستبيح حريمهم وأموالهم، وقالوا له: إمّا أن تحضر أنت بنفسك، وتجعل مَرْوَ دار مُلكك، حتى ينقطع طمع الكافرين عن البلاد ويأمن أهلها، وإمّا أن تصالح خُوارزم شاه؛ فأجاب إلى الصلح وترك معارضة البلاد.

فلمّا سمع من بخُراسان من الغُزّ بذلك طمعوا في البلاد، فعاودوا النهب والإحراق والتخريب، فسمع خُوارزم شاه فجمع عساكره وحضر بخُراسان، ودخل مرو وسَرْخَس ونَسا وأبِيوَرد وغيرها، وأصلح البلاد، وتطرّق إلى طُوس وهي للمؤيّد صاحب نيسابور، فجمع المؤيّد جيوشه وسار إليه، فلمّا سمع خُوارزم شاه بمسيره إليه عاد إلى خُوارزم، فلمّا وصل إلى الرمل أقام بطرفه، فلمّا سمع المؤيّد بعود خُوارزم شاه طمع فيه وتبِعه، فلمّا سمع خُوارزم شاه بذلك أرسل إلى المناهل التي في البريّة فألقى فيها الجِيفَ والتُّراب بحيث لم يمكن الانتفاع بها.

فلمّا توسط المؤيّد البريّة طلب الماء فلم يجده، فجاء خُوارزم شاه إليه وهو على تلك الحال، ومعه الماء على الجمال، فأحاط به، فأمّا عسكره فاستسلموا بأسرهم، وجيء بالمؤيّد أسيراً إلى خوارزم شاه، فأمر بضرب عنقه، فقال له: يا مخنّث هذا فعال النّاس؟ فلم يلتفت إليه، وقتله وحمل رأسه إلى خُوارزم.

فلمّا قُتل ملكُ نيسابور ملك ما كان له ابنه طُغان شاه. فلمّا كان من قابل جمع خُوارزم شاه عساكره وسار إلى نيسابور، فحاصرها وقاتلها، فمنعه طُغان شاه فعاد عنه ثمّ رجع إليه، فخرج إليه طُغان شاه فقاتله، فأسر طُغان شاه وأخذه وزوّجه أخته، وحمله معه إلى خُوارزم، وملك نَيسابور وجميع ما كان لطُغان شاه من الملك وعظُم شأنه وقوي أمره.

هذا الذي ذكره في هذه الرواية مخالف لما تقدّم، ولو أمكن الجمع بين الروايتين لفعلتُ، فإنّ أحدهما قد قدّم ما أخّره الآخر، فلهذا أوردنا جميع ما قالاه، ولبُعد البلاد عنّا لم نعلم أيّ القولين أصح لنذكره ونترك الآخر، وإنما أوردتُها في موضع واحد لأن أيام سلطان شاه لم تطُلْ له ولأعقابه حتى تتفرّق على السنين، فلهذا أوردتُها متتابعة[1].

---

(١) المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٨ هـ) ص ٤١.

ذكر غارة الفرنج على بلد حَوْران وغارة المسلمين على بلد الفرنج

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، اجتمعت الفرنج وساروا إلى بلد حَوْران من أعمال دمشق للغارة عليه، وبلغ الخبر إلى نور الدين وكان قد برز ونزل هو وعسكره بالكُسْوة، فسار إليهم مُجداً، وقدِم بجموعه عليهم، فلمّا علموا بقربه منهم دخلوا إلى السواد، وهو من أعمال دمشق أيضاً، ولحقهم المسلمون فتخطّفوا من في ساقتهم ونالوا منهم، وسار نور الدين فنزل في عَشْتَرا[1]، وسيّر منها سريّة إلى أعمال طَبَريّة، فشنّوا الغارات عليها، فنهبوا وسبوا، وأحرقوا وخرّبوا، فسمع الفرنج ذلك، فرحلوا إليهم ليمنعوا عن بلدهم، فلمّا وصلوا كان المسلمون قد فرغوا من نهبهم وغنيمتهم، وعادوا وعبروا النهر.

وأدركهم الفرنج، فوقف مقابلهم شجعان المسلمين وحماتهم يقاتلونهم، فاشتدّ القتال وصبر الفريقان، الفرنج يرومون أن يلحقوا الغنيمة فيردّوها، والمسلمون يريدون أن يمنعوهم عنها لينجو بها من قد سار معها، فلمّا طال القتال بينهم وأبعدت الغنيمة وسلمت مع المسلمين عاد الفرنج ولم يقدروا [أن] يستردّوا منها شيئاً[2].

ذكر مسير شمس الدولة إلى بلد النّوبة

في هذه السنة، في جُمادى الأولى، سار شمس الدولة تُورانشاه بن أيّوب أخو صلاح الدين الأكبر من مصر إلى بلد النّوبة، فوصل إلى أوّل بلادهم ليتغلّب عليه ويتملّكه.

وكان سبب ذلك أن صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون أن نور الدين كان على عزم الدخول إلى مصر وأخذها منهم، فاستقرّ الرأي بينهم أنّهم يتملكون إما بلاد النوبة أو بلاد اليمن، حتى إذا وصل إليهم نور الدين لقوه وصدّوه عن البلاد، فإن قَوُوا على منعه أقاموا بمصر، وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحِقوا بالبلاد التي قد افتتحوها؛ فجهّز شمس الدولة وسار إلى أسوان، ومنها إلى بلد النّوبة، فنازل قلعةً اسمها

---

(١) في (أ): «عشيرا» والمثبت يتفق مع (ب).

(٢) سنا البرق الشامي ١/١٢٧ ـ ١٢٩، الروضتين ج ١ ق ٢/٥٢٨ ـ ٥٣٠، مفرّج الكروب ١/٢٢٧ ـ ٢٢٨، عقد الجمان ١٢/ ورقة ١٧٤ ب.

أبريم[1]، فحصرها، وقاتله أهلها، فلم يكن لهم بقتال العسكر الإسلاميّ قوّة، لأنّهم ليس لهم جُنّة تقيهم[2] السهام وغيرها من آلة الحرب، فسلموها، فملكها وأقام بها، ولم يرَ للبلاد دخلاً يُرغب فيه وتُحتمل المشقّة لأجله، وقُوتهم الذُّرَة، فلمّا رأى عدم الحاصل، وقشف العيش مع مباشرة الحروب ومعاناة التعب والمشقّة، تركها وعاد إلى مصر بما غنم، وكان عامّة غنيمتهم العبيد والجواري[3].

ذكر ظفر لمليح بن ليون بالروم

في هذه السنة، في جُمادى الأولى، هزم مليح بن ليون الأرمنيّ، صاحب بلاد الدّروب المجاورة لحلب، عسكر الروم من القسطنطينيّة.

وسبب ذلك أنّ نور الدين كان قد استخدم مليحاً المذكور، وأقطعه إقطاعاً سنيّاً، وكان ملازم الخدمة لنور الدين، ومشاهداً لحروبه مع الفرنج، ومباشراً لها؛ وكان هذا من جيّد الرأي وصائبه، فإنّ نور الدين لمّا قيل له في معنى استخدامه وإعطائه الأقطاع من بلاد الإسلام قال: أستعين به على قتال أهل ملّته، وأريح طائفة من عسكري تكون بإزائه لتمنعه من الغارة على البلاد[4] المجاورة له.

وكان مليح أيضاً يتقوّى بنور الدين على من يجاوره من الأرمن والروم، وكانت مدينة أَذَنة والمَصّيصة وطَرسوس بيد ملك الروم، صاحب القسطنطينيّة، فأخذها مليح منهم لأنّها تجاور بلاده، فسيّر إليه ملك الروم جيشاً كثيفاً، وجعل عليهم بعض أعيان البطارقة من أقاربه، فلقيهم مليح ومعه طائفة من عسكر نور الدين فقاتلهم وصدقهم القتال، وصابرهم[5]، فانهزمت الروم، وكثُر فيهم القتل والأسر، وقويت شوكة مليح، وانقطع أمل الروم من تلك البلاد.

---

(١) أبريم: بلدة قديمة تقع على الضفة الشرقية للنيل في منطقة النوبة المصرية. وفي (سنا البرق الشامي ١/ ١٢٩) «إبزيم» بالزاي المعجمة.

(٢) في الأوربية: «تقيمهم».

(٣) الروضتين ج ١ ق ٢/ ٥٣٠ ـ ٥٣١، سنا البرق الشامي ١/ ١٢٩، مفرّج الكروب ٢/ ١٦، البداية والنهاية ١٢/ ٢٧١، فوات الوفيات ٢/ ٩٤، حسن المحاضرة ١/ ٣٢٦.

(٤) في الأوربية: «بلاد».

(٥) في الأوربية: «وصبرهم».

وأرسل مليح إلى نور الدين كثيراً من غنائمهم ومن الأسرى ثلاثين رجلاً من مشهوريهم وأعيانهم، فسيّر نور الدين بعض ذلك إلى الخليفة المستضيء بأمر الله، وكتب يعتدّ بهذا الفتح لأن بعض جُنده فعلوه[1].

ذكر وفاة إيلدكز

في هذه السنة تُوفّي أتابك إيلدكز[2] بهمذان، وملك بعده ابنه محمّد البهلوان، ولم يختلف عليه أحد، وكان إيلدكز هذا مملوكاً للكمال السُّمَيرَميّ[3]، وزير السلطان محمود، فلمّا قُتل الكمال، كما ذكرناه، صار إيلدكز إلى السلطان محمود، فلما ولي السلطان مسعود السلطنة ولاّه أرّانيّة، فمضى إليها، ولم يعُد يحضر عند السلطان مسعود ولا غيره، ثمّ ملك أكثر أَذَرْبيجَان وبلاد الجبل وهَمذان وغيرها، وأصفهان والريّ وما والاهما من البلاد، وخطب بالسلطنة لابن امرأته أرسلان شاه بن طُغُرل؛ وكان عسكره خمسين ألف فارس سوى الأتباع، واتّسع مُلكه من باب تَفليس إلى كَرمان، ولم يكن للسلطان أرسلان شاه معه حكم إنّما كان له جرايةٌ تصل إليه.

وبلغ من تحكّمه عليه أنّه شرب ليلة، فوهب ما في خزانته، وكان كثيراً، فلمّا سمع إيلدكز بذلك استعاده جميعه، وقال له: متى أخرجت المال في غير وجهه، أخذتّه أيضاً من غير وجهه، وظلمتَ الرعيّة.

وكان إيلدكز عاقلاً، حَسَن السيرة، يجلس بنفسه للرعيّة، ويسمع شكاويهم، وينصف بعضهم من بعض.

---

(١) النوادر السلطانية ٤٥، التاريخ الباهر ١٦٠ ـ ١٦١، زبدة الحلب ٢/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨، مفرّج الكروب ١/ ٢٣٣، سنا البرق الشامي ١/ ١٣٣، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٥٤٢ ـ ٥٤٥، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٣، دول الإسلام ٢/ ٨٢، العبر ٤/ ٢٠٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٨ هـ) ص ٤١ ـ ٤٢، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨١، عيون التواريخ ١٧/ ورقة ١٤٧ ب ـ ١٤٨ أ، الكواكب الدرية ٢١٧ ـ ٢١٨، عقد الجمان ١٢/ ورقة ١٧٥ أ، ب، الدر المنتخب ١٧١، تاريخ ابن سباط ١/ ١٣٣ ـ ١٣٤، الإعلام والتبيين ٣٠.

(٢) انظر عن (إيلدكز) في تاريخ دولة آل سلجوق ٢٧٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٣، والعبر ٤/ ٢٠٣، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٨١، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٧١، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٨٣، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٣٣، والسلاجقة ٧٧.

(٣) في الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ «السيرمي».

ذكر وصول الترك إلى إفريقية ومُلكهم طرابلس وغيرها

في هذه السنة سار طائفة من التُّرك من ديار مصر مع قراقوش مملوك تقيّ الدين عمر ابن أخي صلاح الدين يوسف بن أيوب، إلى جبال نَفُوسَة، واجتمع به مسعود بن زمام المعروف بمسعود البلّاط، وهو من أعيان أُمراء العرب هناك، وكان خارجاً عن طاعة عبد المؤمن وأولاده، فاتّفقا، وكثُر جمعهما، ونزلا على طرابُلُسَ الغرب فحاصراها وضيّقا على أهلها، ثمّ فُتحت فاستولى عليها قراقوش، وأسكن أهله قصرها، وملك كثيراً من بلاد إفريقية ما خلا المَهديّة وسَفَاقُس وقَفصة وتونُس وما والاها من القرى والمواضع.

وصار مع قراقوش عسكر كثير، فحكم على تلك البلاد بمساعدة العرب بما جُبلت عليه من التخريب والنهب، والإفساد بقطع الأشجار والثمار، وغير ذلك، فجمع بها أموالاً عظيمة وجعلها بمدينة قابِس، وقويت نفسه وحدّثَته بالاستيلاء على جميع إفريقية لبُعد أبي يعقوب بن عبد المؤمن صاحبها عنها، وكان ما سنذكره إن شاء الله[1].

ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالأندلس

في هذه السنة جمع أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن عساكره وسار من إشبيلية إلى الغزو، فقصد بلاد الفرنج، ونزل على مدينة وَبْذَة[2]، وهي بالقرب من طُلَيْطُلة شرقاً منها، وحصرها، واجتمعت الفرنج على ابن الأذفونش ملك طُلَيْطُلة في جمع كثير، فلم يُقدموا على لقاء المسلمين.

فاتّفق أن الغلاء اشتد على المسلمين، وعُدِمت الأقوات عندهم، وهم في جَمْعٍ كثير، فاضطرّوا إلى مفارقة بلاد الفرنج، فعادوا إلى إشبيلية.

---

(١) انظر عن فتح طرابلس الغرب في: مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٣، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٨١، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٧١، والكواكب الدرية ٢٢٠، وشفاء القلوب ٨٢، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٣٣.

(٢) في طبعة صادر ١١/ ٣٩٠، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٤٠ «رندة» والتصحيح من المصادر: المنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة ٥٠٢ ـ ٥٠٤، ووفيات الأعيان ٢/ ٣٧٤ وفيه «وبذى» والمعجب ٢٥٠، والاستقصا ٢/ ١٣٤، والبيان المغرب ٣/ ٩٦، ونهاية الأرب ٢٤/ ٣٢٤.

وأقام أبو يعقوب بها إلى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وهو في ذلك يجهّز العساكر ويسيّرها إلى غزو بلاد الفرنج في كلّ وقت، فكان فيها عدّة وقائع وغزوات ظهر فيها من العرب من الشجاعة ما لا يوصف، وصار الفارس من العرب يبرز بين الصفّين ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج، فلا يبرز إليه أحد، ثمّ عاد أبو يعقوب إلى مَرّاكُش[1].

ذكر نهب نَهاوَنْد

في هذه السنة نهب عسكر شُملة نَهاوند، وسبب ذلك أنّ شُملة كان أيام إيلدكز لا يزال يطلب منه نهاوند لكونها مجاورة بلاده، ويبذل فيها الأموال، فلا يجيبه إلى ذلك، فلمّا مات إيلدكز، وملك بعده ولده محمّد البهلوان، وسار إلى أَذَرْبيجان لإصلاحها أنفذ[2] شُملة ابن أخيه ابن سنكا لأخذ نهاوند، وبلغ أهل البلد الخبرُ، فتحصّنوا، وحصرهم، وقاتلهم وقاتلوه، وأفحشوا في سبّه، فلمّا علم أنّه لا طاقة له بهم رجع إلى تُستَر، وهي قريبة منها، وأرسل أهل نهاوند إلى البهلوان يطلبون منه نجدة، فتأخّرت عنهم، فلمّا اطمأنّوا خرج ابن سنكا من تُستَر في خمس مائة فارس جريدة، وسار يوماً وليلة فقطع أربعين فرسخاً حتى وصل إلى نهاوند، وضرب البوق وأظهر أنه من أصحاب البهلوان، لأنّه جاءهم من ناحيته، ففتح أهل البلد له الأبواب فدخله، فلمّا توسّط قبض على القاضي والرؤساء وصلبهم، ونهب البلد وأحرقه، وقطع أنف الوالي وأطلقه، وتوجّه نحو ماسبذان قاصداً للعراق.

ذكر قصد نور الدين بلاد قَلْج أرسلان

في هذه السنة سار نور الدين محمود بن زنكي إلى مملكة عز الدين قلج أرسلان بن مسعود بن قِلج أرسلان، وهي مَلَطْيَة وسِيواس وأَقْصَرَا وغيرها، عازماً على حربه وأخذ بلاده منه.

وكان سبب ذلك أنّ ذا النون بن دانشمند صاحب مَلَطْيَة وسِيواس قصده قلج

---

(١) المنّ بالإمامة ٥١٦ ـ ٥٢٥ ـ ٥٢٦، نفح الطيب ٦/١٦، تاريخ ابن خلدون ٦/٣٢٢، نهاية الأرب ٢٤/٣٢٤، البيان المغرب ٣/١٠٥.

(٢) في الأوربية: «نفذ».

أرسلان وأخذ بلاده، وأخرجه عنها طريداً فريداً، فسار إلى نور الدين مستجيراً به وملتجئاً إليه، فأكرم نزله، وأحسن إليه، وحمل له ما يليق أن يحمل إلى الملوك ووعده النُّصْرة والسعي في ردّ مُلكه إليه.

ثمّ إنه أرسل إلى قِلَج أرسلان يشفَع إليه في إعادة بلاد ذي النّون إليه، فلم يُجبْه إلى ذلك، فسار نور الدين إليه، فابتدأ بكَيْسُون وبَهَسْنا[1] ومَرْعَش ومَرْزُبَان، فملكها وما بينها؛ وكان مُلكه لمرعَش أوائل ذي القعدة، والباقي بعدها، فلمّا ملكها سيّر طائفة من عسكره إلى سِيواس فملكوها.

وكان قلج أرسلان لمّا سار نور الدين إلى بلاده قد سار من طرفها الذي يلي الشام إلى وسطها، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح، فتوقّف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب، فأتاه عن الفرنج ما أزعجه، فأجابه إلى الصلح، وشرط عليه أن ينجده بعساكر إلى الغزاة، وقال له: أنت مجاور الروم ولا تغزوهم، وبلادك قطعة كبيرة من بلاد الإسلام، ولا بُدّ من الغزاة معي. فأجابه إلى ذلك، وتبقى سيواس على حالها بيد نوّاب نور الدين وهي لذي النون، فبقي العسكر بها في خدمة ذي النون إلى أن مات نور الدين، فلما مات رحل عسكره عنها، وعاد قِلج أرسلان وملكها، وهي بيد أولاده إلى الآن سنة عشرين[2] وستّمائة.

ولمّا كان نور الدين في هذه السفرة جاءه رسول كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله بن الشَّهْرَزُوريّ من بغداد ومعه منشور من الخليفة بالموصل والجزيرة وبإِرْبِل وخِلاط والشام وبلاد قَلْج أرسلان وديار مصر[3].

---

(١) في طبعة صادر ١١/ ٣٩١ «وبَهْنَسَى» وهو غلط. والصحيح ما أثبتناه. قال أبو الفداء: بَهَسْنا: بفتح الباء الموحدة، والهاء، وسكون السين المهملة ثم نون وألف. من حصون الشام الشمالية. (تقويم البلدان ٢٦٤) ووصفه شيخ الربوة بأنه حصن مليح. (نخبة الدهر ٢٠٦) وكُتِب أيضاً: «بهسنى» بالألف المقصورة.

(٢) في (ب): «اثنتين وعشرين».

(٣) النوادر السلطانية ٤٥، مفرّج الكروب ١/ ٢٣٣، التاريخ الباهر ١٦٠ ـ ١٦١، زبدة الحلب ٢/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٣، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٥٤٢ ـ ٥٤٥، العبر ٤/ ٢٠٢، دول الإسلام ٢/ ٨٢، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨١، الكواكب الدرية ٢١٧ ـ ٢١٨، الدر المنتخب ١٧١، تاريخ ابن سباط ١/ ١٣٣، سنا البرق الشامي ١/ ١٣٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٨ هـ) ص ٤٢، عيون التواريخ ١٧/ ورقة ١٤٧ ب ـ ١٤٨ أ، عقد الجمان =

ذكر رحيل صلاح الدين من مصر إلى الكَرَك وعَوده عنها

في هذه السنة، في شوّال، رحل صلاح الدين يوسف بن أيّوب من مصر بعساكرها جميعها إلى بلاد الفرنج يريد حصر الكَرَك، والاجتماع مع نور الدين عليه، والاتّفاق على قصد بلاد الفرنج من جهتين كلّ واحد منهما في جهة بعسكره.

وسبب ذلك أنّ نور الدين لمّا أنكر على صلاح الدين عوده من بلاد الفرنج في العام الماضي، وأراد نور الدين قصد مصر وأخذها منه، أرسل يعتذر، ويعد من نفسه بالحركة على ما يقرّره نور الدين، فاستقرّت القاعدة بينهما أنّ صلاح الدين يخرج من مصر ويسير نور الدين من دمشق، فأيّهما سبق صاحبه يقيم إلى أن يصل الآخر إليه، وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه؛ فسار صلاح الدين عن مصر لأنّ طريقه أصعب وأبعد وأشقّ، ووصل إلى الكَرَك وحصره.

وأما نور الدين فإنه لما وصل إليه كتاب صلاح الدين برحيله من مصر فرّق الأموال، وحصّل الأزواد وما يحتاج إليه، وسار إلى الكَرَك فوصل إلى الرّقيم، وبينه وبين الكَرك مرحلَتان[1]. فلمّا سمع صلاح الدين بقربه خافه هو وجميع أهله، واتّفق رأيهم على العود إلى مصر، وترك الاجتماع بنور الدين، لأنّهم علموا أنه إن اجتمعا كان عزله على نور الدين سهلاً.

فلما عاد أرسل الفقيه عيسى إلى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنّه كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على ديار مصر، وأنه مريض شديد المرض، ويخاف أن يحدث عليه حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم، وأرسل معه [من] التُّحَف والهدايا ما يجلّ عن الوصف؛ فجاء الرسول إلى نور الدين وأعلمه ذلك فعظُم عليه وعلم المراد من العَود، إلاّ أنّه لم يُظهر للرسول تأثّراً بل قال له: حِفظ مصرَ أهمّ عندنا من غيرها.

وسار صلاح الدين إلى مصر فوجد أباه قد قضى نَحْبه ولحِق بربّه، ورُبَّ كلمةٍ تقول لقائلها دعني. وكان سبب موت نجم الدين أنّه ركب يوماً فرساً بمصر، فنفر به

= ١٢/١٧٥ أ، ب، الإعلام والتبيين ٣٠.

(١) في الأوربية: «مرحلتين».

الفرس نفرةً شديدة، فسقط عنه فحُمل إلى قصره وَقِيذاً، وبقي أياماً، ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة، وكان خيّراً، عاقلاً، حَسَن السيرة، كريماً جواداً، كثير الإحسان إلى الفقراء والصوفيّة، والمجالسة لهم. وقد تقدّم من ذِكره وابتداء أمره وأمر أخيه شِيركوه ما لا حاجة إلى إعادته[١].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة زادت دجلة زيادةً كثيرة أشرفت [بها] بغداد على الغرق في شعبان، وسدّوا أبواب الدروب، ووصل الماء إلى قبّة أحمد بن حنبل ووصل إلى النظاميّة ورباط شيخ الشيوخ، واشتغل الناس بالعمل في القَوْرج، ثم نقص وكفى النّاس شرّه[٢].

وفيها وقعت النار ببغداد من درب بَهرُوز إلى باب جامع القصر، ومن الجانب الآخر من حجر النحاس إلى دار أمّ الخليفة[٣].

وفيها أغار بنو حَزْن من خفاجة على سواد العراق، وسبب ذلك أنّ الحماية كانت لهم لسواد العراق، فلما تمكّن يزدن من البلاد وتسلّم الحِلّة أخذها منهم، وجعلها لبني كعب من خفاجة، وأغار بنو حزن على السواد، فسار يزدن في عسكر ومعه الغضبان الخفاجيّ، وهو من بني كعب، لقتال بني حَزن، فبينما هم سائرون ليلاً رمى بعض الجُند الغضبان بسهم فقتله لفساده، وكان في السواد، فلمّا قُتل عاد العسكر إلى بغداد وأعيدت خفارة السواد إلى بني حزن.

وفيها خرج برجم الإيوائي في جمع من التركمان، (في حياة إيلدكز)[٤]، وتطرّق أعمال همذان، ونهب الدّينَوَر، واستباح الحريم.

---

(١) النوادر السلطانية ٤٥ ـ ٤٦، سنا البرق الشامي ١/ ١١٧ ـ ١١٨، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٥٢٦ ـ ٥٢٧ و٥٣٢ ـ ٥٤٤، وزبدة الحلب ٢/ ٣٣٤، الدر المطلوب ٥٠ ـ ٥١، المغرب في حلى المغرب ١٤٢، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٣، العبر ٤/ ٣٠٣، مرآة الجنان ٣/ ٣٨٤، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨١، البداية والنهاية ١٢/ ٢٧٠ و٢٧١ ـ ٢٧٢، الكواكب الدرية ٢٢٠، تاريخ ابن سباط ١/ ١٣٤.

(٢) المنتظم ١٨/ ٢٠٠.

(٣) المنتظم ١٨/ ٢٠٠.

(٤) من (أ).

وسمع إيلدكز الخبر وهو بنَقجُوان، فسار مُجِدّاً فيمن خفّ معه من عسكره، فقصده، فهرب برجم إلى أن قارب بغداد، وتبعه إيلدكز فظنّ الخليفة أنّها حيلة ليصل إلى بغداد فجأة، فشرع في جمع العساكر وعمل السور، فأرسل إلى إيلدكز الخلع والألقاب الكبيرة، فاعتذر أنّه لم يقصد إلا كفّ فساد هؤلاء، ولم يتعدّ قنطرة خانقِين وعاد.

[الوفيات]

فيها تُوفّي الأمير يَزدن، وهو من أكابر أمراء بغداد، وكان يتشيّع، فوقع بسببه فتنة بين السُّنة والشيعة بواسط لأن الشيعة جلسوا له للعزاء وأظهر السُّنة الشماتة به فآل الأمر إلى القتال فقُتل بينهم جماعة.

ولمّا مات أُقطع أخوه تنامش ما كان لأخيه وهو مدينة واسِط، ولُقّب علاء الدين.

وفيها أرسل نور الدين محمود بن زنكي رسولاً إلى الخليفة، وكان الرسول القاضي كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله الشّهْرَزوريّ، قاضي بلاده جميعها مع الوقوف والدّيوان، وحمّله رسالة مضمونها الخدمة للدّيوان، وما هو عليه من جهاد الكفّار، وفتح بلادهم، ويطلب تقليداً بما بيده من البلاد، مصر والشام والجزيرة والموصل، وبما في طاعته كديار بكر وما يجاور ذلك كخِلاط وبلاد قلج أرسلان، وأن يُعطى من الأقطاع بسواد العراق ما كان لأبيه زنكي وهو: طريفين ودرب هارون، والتمس أرضاً على شاطىء دجلة يبنيها مدرسة للشافعيّة، ويوقف عليها صريفين ودرب هارون، فأُكرِم كمال الدين إكراماً لم يكرم به رسولٌ قبله، وأجيب إلى ما التمسه، فمات نور الدين قبل الشروع في بناء المدرسة، رحمه الله[1].

---

(١) سنا البرق الشامي ١/١٣٥، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/٢٩٤، الروضتين ج ١ ق ٢/٥٤٥.

٥٦٩

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

ذكر مُلك شمس الدولة زَبيد وعدن وغيرهما من بلاد اليمن

قد ذكرنا قبلُ أنّ صلاح الدين يوسف بن أيوب، صاحب مصر، وأهله كانوا يخافون من نور الدين محمود أن يدخل إلى مصر فيأخذها منهم، فشرعوا في تحصيل مملكةٍ يقصدونها ويتملّكونها تكون عدةً لهم إن أخرجهم نور الدين من مصر ساروا إليها وأقاموا بها، فسيّروا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، وهو أخو صلاح الدين الأكبر، إلى بلد النّوبة، فكان ما ذكرناه.

فلما عاد إلى مصر استأذنوا نور الدين في أن يسير إلى اليمن لقصد عبد النبيّ، صاحب زبيد [وأخذ بلده] لأجل قطع الخطبة العبّاسية، فأذِن في ذلك.

وكان بمصر شاعر اسمه عُمارة[١] من أهل اليمن، فكان يحسّن لشمس الدولة قصد اليمن، ويصف البلاد له، ويعظّم ذلك في عينه، فزاده قوله رغبة فيها، فشرع يتجهّز ويُعدّ الأزواد والروايا والسلاح وغيرها من الآلات، وجنّد الأجناد، فجمع وحشد، وسار عن مصر مستهلّ رجب، فوصل إلى مكة، أعزّها الله تعالى، ومنها إلى زَبيد، وفيها صاحبها المتغلّب عليها المعروف بعبد النبيّ، فلما قرب منها رآه أهلها، فاستقلّوا[٢] من معه، فقال لهم عبد النبيّ: كأنكم بهؤلاء وقد حمي عليهم الحرّ فهلكوا وما هم إلاّ أكلة رأسٍ؛ فخرج إليهم فعسكره، فقاتلهم شمس الدولة ومن معه، فلم يثبت أهل زبيد وانهزموا، ووصل المصريّون إلى سور زَبِيد، فلم يجدوا عليه من يمنعهم فنصبوا السلالم، وصعدوا السور، فملكوا البلد عنوةً ونهبوه وأكثروا النهب،

---

(١) هو القاضي الفقيه الشاعر نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن الحكمي اليمني، صاحب كتاب «النُكت العصر في أخبار الوزراء المصرية».

(٢) في الأوربية: «فاستقل».

وأخذوا عبد النبيّ أسيراً وزوجته المدعوّة بالحُرّة، وكانت امرأة صالحة كثيرة الصدقة لا سيّما إذا حجّت، فإنّ فقراء الحاجّ كانوا يجدون عندها صدقة دارّة، وخيراً كثيراً، ومعروفاً عظيماً، [وسلّم شمس الدولة عبد النبيّ][1] إلى بعض أمرائه، يقال له سيف الدولة مبارك بن كامل من بني مُنقذ، أصحاب شَيْزَر، وأمره أن يستخرج منه الأموال، فأعطاه منها شيئاً كثيراً، ثم إنّه دلّهم على قبر كان قد صنعه لوالده، وبنى عليه بنية عظيمة، وله هناك دفائن كثيرة، فأعلمهم بها، فاستُخرجت الأموال من هناك وكانت جليلة المقدار، وأمّا الحرة فإنها أيضاً كانت تدلّهم على ودائع لها، فأخذ منها مالاً كثيراً.

ولما ملكوا زبيد واستقرّ الأمر لهم بها، ودان أهلها، وأقيمت فيها الخطبة العبّاسية، أصلحوا حالها، وساروا إلى عدن، وهي على البحر، ولها مَرْسًى عظيم، وهي فُرضة الهند والزّنج والحبشة، وعُمان وكَرمان، وكِيش، وفارس، وغير ذلك، وهي من جهة البرّ من أمنع البلاد وأحصنها، وصاحبها إنسان اسمه ياسر، فلو أقام بها ولم يخرج عنها لعادوا خائبين، وإنّما حمله جهله وانقضاء مدّته على الخروج إليهم ومباشرة قتالهم، فسار إليهم وقاتلهم، فانهزم ياسر ومن معه، وسبقهم بعض عسكر شمس الدولة، فدخلوا البلد قبل أهله، فملكوه، وأخذوا صاحبه ياسراً أسيراً، وأرادوا نهب البلد، فمنعهم شمس الدولة، وقال: ما جئنا لنخرب البلاد، وإنّما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بدخلها؛ فلم ينهب أحد منها شيئاً، فبقيت على حالها وثبت مُلكه واستقرّ أمره.

ولمّا مضى إلى عدن كان معه عبد النبيّ صاحب زَبيد مأسوراً، فلما دخل إلى عدن قال: سبحان الله! كنتُ قد علمتُ أنّني أدخل إلى (عدن في موكب كبير)[2] فأنا أنتظر ذلك وأُسَرّ به، ولم أكن أعلم أنّني أدخلها على هذه الحال.

ولمّا فرغ شمس الدولة من أمر عدن عاد إلى زبيد، وحصر ما في الجبل من الحصون، فملك قلعة تَعزّ، وهي من أحصن القلاع، وبها تكون خزائن صاحب زبيد، وملك أيضاً قلعة التَّعْكر والجَنَد[3] وغيرها من المعاقل والحصون، واستناب بعدن عزّ

---

(١) من الباريسية.
(٢) من (أ).
(٣) في الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ «الحد».

الدين عُثمان بن الزّنجيليّ، وبزبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ، وجعل في كلّ قلعة نائباً من أصحابه، وألقى مُلكهم باليمن جِرَانَهُ[1] ودام، وأحسن شمس الدولة إلى أهل البلاد، واستصفى طاعتهم بالعدل والإحسان، وعادت زَبِيد إلى أحسن أحوالها من العمارة والأمن[2].

ذكر قتل جماعة من المصريّين أرادوا الوثوب بصلاح الدين

في هذه السنة، ثاني رمضان، صلب صلاح الدين يوسف بن أيّوب جماعة ممّن أراد الوثوب به بمصر من أصحاب الخلفاء العلويّين.

وسبب ذلك أنّ جماعة من شيعة العلويّين منهم عُمارة بن أبي الحسن اليمنيّ الشاعر، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي العُوَيرِس[3]، وداعي الدُّعاة وغيرهم من جُند المصريّين ورجالتهم السودان، وحاشية القصر، ووافقهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجُنده، واتّفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صَقَلّيَة، ومن ساحل الشام إلى ديار مصر على شيء بذلوه لهم من المال والبلاد، فإذا قصدوا البلاد، فإن خرج صلاح الدين بنفسه إليهم ثاروا هم في القاهرة ومصر وأعادوا الدولة العلويّة، وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه، فلا يبقى له مقام مقابل الفرنج، وإن كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر إليهم ثاروا به، وأخذوه أخذاً باليد لعدم النّاصر له والمساعد، وقال لهم عُمارة: وأنا قد أبعدتُ أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسدّ مسدّه وتجتمع الكلمة عليه بعده.

وأرسلوا إلى الفرنج بصقلّيّة والساحل في ذلك، وتقرّرت القاعدة بينهم، ولم يبقَ

---

(١) في الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ «حرانه» مهملة.

(٢) النوادر السلطانية ٤٦، النكت العصرية ٣٥٢ ـ ٣٥٥، سنا البرق الشامي ١/ ١٤٠، زبدة الحلب ٢/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٥٥١ ـ ٥٥٥، مفرّج الكروب ١/ ٢٣٨ ـ ٢٤٠، تاريخ الزمان ١٨٩، المغرب في حلى المغرب ١٤٢، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٤، العبر ٤/ ٢٠١ و٢٠٧، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٩ هـ) ص ٤٧، دول الإسلام ٢/ ٨٣، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٩٩، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٢، مرآة الجنان ٣/ ٣٨٤ ، البداية والنهاية ١٢/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤، مآثر الإنافة ٢/ ٥٤، الكواكب الدرية ٢٢١ ـ ٢٢٣، الدر المطلوب ٤٢ و٥٧، السلوك ج ١ ق ١/ ٥٢، تاريخ ابن سباط ١/ ١٣٤.

(٣) في (ب): «العوريين»، وفي تاريخ الإسلام «العوريس» وكذا في الدر المطلوب والمثبت من (أ) وسنا البرق الشامي، والروضتين، ومفرّج الكروب.

إلاّ رحيل الفرنج، وكان من لُطف الله بالمسلمين أنّ الجماعة المصريّين أدخلوا معهم في هذا الأمير زين الدين علي بن نجا الواعظ، المعروف بابن نُجَيّة، ورتّبوا الخليفة والوزير والحاجب والدّاعي والقاضي، إلاّ أنّ بني رُزّيك قالوا: يكون الوزير منّا؛ وبني شاور قالوا: يكون الوزير منّا؛ فلمّا علم ابن نجا الحال حضر عند صلاح الدين، وأعلمه حقيقة الأمر، فأمر بملازمتهم، ومخالطتهم، ومواطأتهم على ما يريدون أن يفعلوه، وتعريفه ما يتجدّد أوّلاً بأوّل، ففعل ذلك وصار يطالعه بكلّ ما عزموا عليه.

ثم وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل الشاميّ إلى صلاح الدين بهديّة ورسالة، وهو في الظاهر إليه، والباطن إلى أولئك الجماعة، وكان يرسل إليهم بعض النصارى وتأتيه رُسُلهم، فأتَى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجليّة الحال، فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق به[1] من النصارى، وداخله، فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته، فقبض حينئذٍ على المقدّمين في هذه الحادثة منهم: عُمارة، وعبد الصمد، والعُوَيرس[2] وغيرهم، وصلبهم.

وقيل في كشف أمرهم إن عبد الصمد المذكور كان إذا لقي القاضي الفاضل[3] الكاتب الصلاحي يخدمه ويتقرّب إليه بجهده وطاقته، فلقيه يوماً، فلم يلتفت إليه، فقال القاضي الفاضل: ما هذا إلا لسبب. وخاف أن يكون قد صار له باطن من صلاح الدين، فأحضر عليّ بن نجا الواعظ وأخبره الحال، وقال: أريد أن تكشف لي الأمر؛ فسعى في كشفه فلم يرَ له من جانب صلاح الدين شيئاً، فعدل إلى الجانب الآخر، فكشف الحال، وحضر عند القاضي الفاضل وأعلمه، فقال: تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهي الحال إليه؛ فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع، فذكر له الحال، فقام وأخذ الجماعة وقرّرهم، فأقرّوا، فأمر بصلبهم.

وكان عُمارة بينه وبين الفاضل عداوة من أيّام العاضد وقبلها، فلمّا أراد صلبه قام القاضي الفاضل وخاطب صلاح الدين في إطلاقه، وظنّ عُمارة أنّه يحرّض على هلاكه، فقال لصلاح الدين: يا مولانا لا تسمع منه في حقّي؛ فغضب الفاضل وخرج، وقال صلاح الدين لعُمارة: إنّه كان يشفع فيك؛ فندم، ثمّ أخرج عمارة ليُصلب، فطلب أن

---

(١) في الأوربية: «إليه».

(٢) في (ب): «والعرويس».

(٣) هو القاضي محيي الدين عبد الرحيم بن علي بن حسن البيساني المصري.

يمرّ به على مجلس الفاضل، فاجتازوا به عليه، فأغلق بابه ولم يجتمع به، فقال عُمارة:

عبـدُ الـرّحيـمِ قـدِ احتَجَـبْ إنّ الخَـلاصَ هُـوَ العَجَـبْ

ثم صُلب هو والجماعة[1]، ونودي في أجناد المصريّين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها إلى أقاصي الصعيد، واحتيط على من بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله.

وأما الذين نافقوا على صلاح الدين من جُنده فلم يعرض لهم، ولا أعلمهم أنه علم بحالهم.

وأما الفرنج، فإن فرنج صقليّة قصدوا الإسكندرية على ما نذكره إن شاء الله تعالى، لأنّهم لم يتّصل بهم ظهور الخبر عند صلاح الدين.

وأما فرنج الساحل الشامي فإنهم لم يتحرّكوا لعلمهم بحقيقة الحال.

وكان عُمارة شاعراً مفلِقاً، فمن شعره:

لَوْ أنّ قلبي يَوْمَ كاظِمَةٍ[2] معي لمَلكتُه وكظَمتُ[3] فَيضَ الأدمُعِ
قلـبٌ كفـاكَ مـن الصّبـابَـةِ أنّـهُ لَبّـى نـداء الظّـاعِنيـن ومـا دُعـي
مـا القَلـبُ أوّلَ غـادِرٍ فـألُـومَـهُ هي شيمةُ الأيّام مُذْ[4] خُلقتْ معي
ومن الظنونِ الفاسداتِ توهُّمي بَعْدَ اليَقيـنِ بقـاءهُ فـي أضلعـي[5]

وله أيضاً[6]:

[لي] في هوى الرّشإ العُذْريّ إعْذارُ لـم يَبـقَ لـي مُـذْ أقَـرّ الـدّمعُ إنكَـارُ

---

(١) سنا البرق الشامي ١/ ١٤٧ ـ ١٤٩، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٥٦٠ ـ ٥٦٥، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠، مسالك الأبصار ٢٧/ ورقة ٣١ أ، ب، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٤، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٩ هـ) ص ٥٠ ـ ٥١، البداية والنهاية ١٢/ ٢٧٥، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٢، الكواكب الدرية ٢٢٤ ـ ٢٢٧، السلوك ج ١ ق ١/ ٥٣، تاريخ ابن سباط ١/ ١٣٥، بدائع الزهور ج ١ ق ١/ ٢٤٠.

(٢) في الأوربية: «كاضمة».

(٣) في الأوربية: «وكضمت».

(٤) في الخريدة، والنكت العصرية: «قد».

(٥) الأبيات في خريدة القصر (قسم مصر). والنكت العصرية ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

(٦) وقالها يمدح الملك المعظم شمس الدولة أخا الملك الناصر صلاح الدين.

لي في القُدودِ[١] وفي لَثْمِ الخُدودِ وفي ضَمّ النُّهُودِ لُبَانَاتٌ[٢] وَأوْطَارُ
هذا اختيارِي فوَافِقْ إنْ رضِيتَ بِهِ أوْ لا فدَعْنِي وما أهْوَى وأختارُ[٣]

وله ديوان شِعر مشهور في غاية الحُسن والرقّة والملاحة[٤].

ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي، رحمه الله

في هذه السنة تُوفي نور الدين محمود[٥] بن زنكي بن آقسنْقر، صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر، يوم الأربعاء حادي عشر شوّال، بعلّة الخوانيق، ودُفن بقلعة دمشق، ونُقل منها إلى المدرسة التي أنشأها بدمشق، عند سوق الخواصين.

ومن عجيب الاتّفاق أنه ركب ثاني شوال وإلى جانبه بعض الأمراء الأخيار، فقال له الأمير: سبحان من يعلم هل نجتمع هنا في العام المقبل أم لا؟ فقال نور الدين: لا تقُل هكذا، بل سبحان من يعلم هل نجتمع بعد شهرٍ أم لا؟ فمات نور الدين، رحمه الله، بعد أحد عشر يوماً، ومات الأمير قبل الحَوْل، فأُخذ كلٌّ منهما بما قاله.

وكان قد شرع يتجهّز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين يوسف بن أيّوب، فإنّه رأى منه فُتُوراً في غزو الفرنج من ناحيته، وكان يعلم أنه إنما يمنع صلاح الدين من الغزو الخوف منه ومن الاجتماع به، فإنه يؤثر كون الفرنج في الطريق ليمتنع بهم على نور الدين، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر للغَزاة، وكان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازي، صاحب الموصل بالشام، ويسير هو بعساكره إلى مصر، فبينما هو يتجهّز لذلك أتاه أمر الله الذي لا مَرَدّ له.

حكى لي طبيب يُعرف بالطبيب الرحْبيّ وهو كان يخدم نور الدين، وهو من حُذّاق الأطباء، قال: استدعاني نور الدين في مرضه الذي تُوفّي فيه مع غيري من

---

(١) في الأوربية: «القدوم».
(٢) في الأوربية: «البنات».
(٣) الأبيات في النكب العصرية ٢٦٥.
(٤) انظر عن (عمارة) في تاريخ الإسلام.
(٥) انظر عن وفاة نور الدين محمود في: تاريخ ابن سباط ١/ ١٣٥ ـ ١٣٨ وفيه حشدت عشرات المصادر لترجمته وكذا في تاريخ الإسلام (وفيات ٥٦٩ هـ).

الأطباء، فدخلنا إليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق، وقد تمكّنت الخوانيق منه، وقارب الهلاك، فلا يكاد يُسمع صوته؛ وكان يخلو فيه للتعبّد، فابتدأ به المرض، فلم ينتقل عنه، فلمّا دخلنا ورأينا ما به قلتُ له: كان ينبغي أن لا تؤخّر إحضارنا إلى أن يشتدّ بك المرض الآن، وينبغي أن تعجّل الانتقال من هذا الموضع إلى مكانٍ فسيح مُضيء، فله أثر في هذا المرض. وشرعنا في علاجه، وأشرنا بالفصد، فقال: ابن ستّين لا يفتصد؛ وامتنع منه، فعالجناه بغيره، فلم ينجع فيه الدواء، وعظُم الداء، ومات، رحمه الله ورضي عنه.

وكان أسمر، طويل القامة، ليس له لحية إلاّ في حنكه، وكان واسع الجبهة، حسن الصورة، حلو العينين، وكان قد اتّسع مُلكه جدّاً، وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن لما دخلها شمس الدولة بن أيوب وملكها، وكان مولده سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وطبّق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله. وقد طالعتُ سِيَر الملوك المتقدّمين، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته، ولا أكثر تحرّياً منه للعدل.

وقد أتينا على كثيرٍ من ذلك في كتاب «الباهر» من أخبار دولتهم، ولْنَذْكُرْ هاهنا نبذةً مختصرة لعلّ يقف عليها من له حكم فيقتدي به؛ فمن ذلك زُهده وعبادته وعلمه، فإنه كان لا يؤكل ولا يلبس [ولا يتصرّف][1] في الذي يخصّه [إلا][2] من ملكٍ كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة، فأعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له، منها يحصل له في السنة نحو عشرين ديناراً، فلمّا استقلّتها قال: ليس لي إلاّ هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم فيه، ولا أخوض نار جهنّم لأجلك.

وكان يصلّي كثيراً بالليل، وله فيه أوراد حسنة، وكان كما قيل:

جمعَ الشّجاعة والخشُوعَ لربّه ما أحسنَ المحرابَ في المحرابِ

وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة، ليس عنده فيه تعصّبٌ، وسمع الحديث، وأسمعه طلباً للأجر.

وأما عدله، فإنه لم يترك في بلاده، على سعتها، مكساً ولا عُشراً بل أطلقها

---

(١) من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

(٢) من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل؛ وكان يعظم الشريعة، ويقف عند أحكامها؛ وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم، فمضى معه إليه، وأرسل إلى القاضي كمال الدين بن الشّهرَزُوري يقول: قد جئتُ محاكَماً، فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم؛ وظهر الحقّ له، فوهبه الخصم الذي أحضره، وقال: أردتُ أن أترك له ما يدّعيه، إنما خفتُ أن يكون الباعث لي على ذلك الكِبْر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة، فحضرتُ، ثم وهبته ما يدّعيه.

وبنى دار العدل في بلاده، وكمان يجلس هو والقاضي فيها ينصف المظلوم، ولو أنّه يهوديّ، من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده.

وأما شجاعته، فإليها النهاية، وكان في الحرب يأخذ قوسين وتركشَين ليقاتل بها، فقال له القُطب النّشاويّ الفقيه: بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين، فإن أُصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد[1] إلاّ أخذه السيف. فقال له نور الدين: ومن محمودٌ حتى يقال له هذا؟ من قبلي من حفظ البلاد والإسلام؟ ذلك الله الذي لا إله إلاّ هو.

وأما ما فعله من المصالح، فإنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها، فمنها دمشق، وحمص، وحماة، وحلب، وشَيْزَر، وبعلبك[2] وغيرها، وبنى المدارس الكثيرة للحنفيّة والشافعيّة، وبنى الجامع النُّوريّ بالموصل، وبنى البيمارستانات والخانات في الطُرق، وبنى الخانكاهات للصوفية في جميع البلاد، ووقف على الجميع الوقوف الكثيرة. سمعتُ أنّ حاصل وقفه كلّ شهر تسعة آلاف دينار صُورِيّ. وكان يُكرم العلماء وأهل الدين ويعظّمهم ويعطيهم ويقوم إليهم ويجلسهم معه، وينبسط معهم، ولا يردّ لهم قولاً، ويكاتبهم بخطّ يده؛ وكان وقوراً مهيباً مع تواضعه، وبالجملة فحسناتُه كثيرة ومناقبه غزيرة لا يحتملها هذا الكتاب.

ذكر مُلك ولده الملك الصالح

لما تُوفي نور الدين قام ابنه الملك الصالح إسماعيل بالمُلك بعده. وكان عمره إحدى عشرة سنة، وحلف له الأمراء والمقدّمون بدمشق، وأقام بها، وأطاعه الناس

---

(١) في (أ): «لا يبقى لمسلمين أحد» وفي (ب): «يبقى أحد».

(٢) وزاد ابن سباط في تاريخه ١/١٣٧ أنه بنى جسر كامد اللوز بالبقاع العزيزي.

بالشام وصلاح الدين بمصر، وخطب له بها، وضرب السكّة باسمه، وتولّى تربيته الأمير شمس [الدين] محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدّم، وصار مدبّر دولته؛ فقال له كمال الدين بن الشّهرزوريّ ولمن معه من الأمراء: قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر هو من مماليك نور الدين، ونوّابه أصحاب نور الدين، والمصلحة أن نشاوره في الذي نفعله، ولا نُخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا، ويجعل ذلك حُجّة علينا، وهو أقوى منا، لأنه قد انفرد اليوم بملك مصر؛ فلم يوافق هذا القول أغراضهم، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجهم، فلم يمضِ غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يعزّيه ويهنئه بالملك، وأرسل دنانير مصريّة عليها اسمه ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه.

فلما سار سيف الدين غازي، صاحب الموصل، وملك البلاد الجزريّة، على ما نذكره، أرسلا صلاح الدين أيضاً إلى الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصْدَ سيف الدين بلادَه وأخذها، ليحضر في خدمته ويكف سيف الدين، وكتب إلى كمال الدين والأمراء يقول: لو أنّ نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامي، أو يثق به مثل ثقته بي لسلّم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري، وأراكم قد تفرّدتم بمولاي وابن مولاي دوني، وسوف أصل إلى خدمته، وأُجازي إنعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأجازي كلاًّ منكم على سوء صنيعه في ترك الذّبّ عن بلاده.

وتمسك ابن المقدم وجماعة الأمراء بالملك الصالح، ولم يرسلوه إلى حلب، خوفاً أن يغلبهم عليه شمس الدين عليّ بن الداية، فإنه كان أكبر الأمراء النوريّة، وإنما منعه من الاتصال به والقيام بخدمته مرض لحقه، وكان هو وإخوته بحلب، وأمرها إليهم، وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده، ولمّا عجز عن الحركة أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب ليمنع به البلاد الجزريّة من سيف الدين ابن عمّه قُطْب الدين، فلم يمكّنه الأمراء الذين معه من الانتقال إلى حلب لما ذكرناه[1].

ذكر مُلك سيف الدين البلاد الجزريّة

كان نور الدين قبل أن يمرض قد أرسل إلى البلاد الشرقيّة، الموصل وديار

---

(١) سنا البرق الشامي ١/١٦٩، الروضتين ج ١ ق ٢/٥٩٧، مفرّج الكروب ٢/١٨.

الجزيرة وغيرها، يستدعي العساكر منها للغزاة، والمراد غيرها، وقد تقدّم ذكره، فسار سيف الدين غازي بن قُطْب الدين مودود بن زنكي، صاحب الموصل، في عساكره، وعلى مقدّمته الخادم سعد الدين كمشْتَكين الذي كان قد جعله نور الدين بقلعة الموصل مع سيف الدين، فلمّا كانوا ببعض الطريق وصلت الأخبار بوفاة نور الدين، فأما سعد الدين فإنه كان في المقدّمة، فهرب جريدة.

وأما سيف الدين فأخذ كل ما كان له من بَرْك وغيره، وعاد إلى نصيبين فملكها، وأرسل الشحَن إلى الخابور فاستولوا عليه، وأقطعه، وسار هو إلى حرّان فحصرها عدّة أيام، وبها مملوك لنور الدين يقال له قايماز الحرّانيّ، فامتنع بها، وأطاع بعد ذلك على أن تكون حرّان له، ونزل إلى خدمة سيف الدين، فقبض عليه وأخذ حرّان منه، وسار إلى الرُّها فحصرها وملكها، وكان بها خادم خصيّ أسود لنور الدين فسلّمها وطلب عوضها قلعة الزّعفران من أعمال جزيرة ابن عمر، فأُعطيها، ثم أُخذت منه، ثم صار إلى أن يستعطي ما يقوته.

وسيّر سيف الدين إلى الرَّقة فملكها، وكذلك سروج، واستكمل ملك جميع بلاد الجزيرة سوى قلعة جعْبَر، فإنّها كانت منيعة، وسوى رأس عين، فإنها كانت لقُطْب الدين، صاحب ماردين، وهو ابن خال سيف الدين، فلم يتعرض إليها.

وكان شمس الدين عليُّ بن الداية، وهو أكبر الأمراء النوريّة، بحلب مع عساكرها، فلم يقدر على العبور إلى سيف الدين ليمنعه من أخذ البلاد، لفالج كان به، فأرسل إلى دمشق يطلب الملك الصالح، فلم يرسل إليه، لما ذكرناه؛ ولما ملك سيف الدين الديار الجزرية قال له فخر الدين عبد المسيح، وكان قد وصل إليه من سِيواس بعد موت نور الدين، وهو الذي أقرّ له الملك بعد أبيه قُطب الدين، فظنّ أنّ سيف الدين يرعى له ذلك، فلم يجْنِ ثمرة ما غرس، وكان عنده كبعض الأمراء، قال له: الرأي أن تعبر إلى الشام فليس به مانع؛ فقال له أكبر أمرائه، وهو أميرٌ يقال له عزّ الدين محمود المعروف بزُلفندار: قد ملكتَ أكثر ما كان لأبيك، والمصلحة أن تعود؛ فرجع إلى قوله، وعاد إلى الموصل ليقضي الله أمراً كان مفعولاً[1].

---

(١) التاريخ الباهر ١٧٥، الروضتين ج ١ ق ٥٩١/٢، تاريخ الزمان ١٨٩، تاريخ مختصر الدول ٢١٦، زبدة الحلب ١١/٣ ـ ١٢، مفرّج الكروب ٥/٢، سنا البرق الشامي ١٦٧/١، الدر المطلوب ٥٧، =

ذكر حصر الفرنج بانياس وعودهم عنها

لما مات نور الدين محمود، صاحب الشام، اجتمعت الفرنج وساروا إلى قلعة بانياس من أعمال دمشق فحصروها[1]، فجمع شمس الدين محمد بن المقدّم العسكر عنده بدمشق، فخرج عنها، فراسلهم، ولاطفهم، ثم أغلظ لهم في القول، وقال لهم: إن أنتم صالحتمونا وعُدتم عن بانياس، فنحن على ما كنا عليه، وإلا فنرسل إلى سيف الدين، صاحب الموصل، ونصالحه، ونستنجده، ونرسل إلى صلاح الدين بمصر فنستنجده، ونقصد بلادكم من جهاتها كلّها، ولا تقومون لنا. وأنتم تعلمون أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين، والآن فقد زال ذلك الخوف، وإذا طلبناه إلى بلادكم فلا يمتنع. فعلموا صدْقه، فصالحوه على شيء من المال أخذوه وأسرى أُطلقوا لهم كانوا عند المسلمين، وتقرّرت الهدنة.

فلما سمع صلاح الدين بذلك أنكره واستعظمه، وكتب إلى الملك الصالح والأمراء الذين معه يقبّح لهم ما فعلوه ويبذل من نفسه قصْدَ بلاد الفرنج ومقارعتهم وإزعاجهم عن قصد شيء من بلاد الملك الصالح؛ وكان قصده أن يصير له طريق إلى بلاد الشام ليتملّك البلاد، والأمراء الشاميّون إنما صالحوا الفرنج خوفاً منه ومن سيف الدين غازي، صاحب الموصل، فإنه كان قد أخذ البلاد الجَزَريّة، وخافوا منه أن يعبر إلى الشام، فرأوا صلح الفرنج أصلح من أن يجيء هذا من الغرب، وهذا من الشرق، وهم مشغولون عن ردّهم[2].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في المحرّم، وقع الحريق ببغداد فاحترق أكثر الظَّفَرية ومواضع غيرها، ودام الحريق إلى بُكرة وطفئت النار[3].

وفيها، في شعبان، بنى ابن سنكا، وهو ابن أخي شُملة صاحب خُوزستان، قلعة

= الأعلاق الخطيرة ٢/٤٨ و٣ق ٥٧/١ و٧٩ و١٠٧ و١٣٤، المختصر في أخبار البشر ٥٦/٣، تاريخ ابن الوردي ٨٣/٢، الدر المنتخب ١٧٥، تاريخ ابن سباط ١٣٩/١.

(١) في الأوربية: «فحصرها».

(٢) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٩ هـ) ص ٤٩ ـ ٥٠.

(٣) المنتظم ٢٠٢/١٨.

بالقرب من الماهكي ليتقوّى بها على الاستيلاء على تلك الأعمال، فسيّر إليه الخليفة العساكر من بغداد لمنعه، فالتقوا وحمل بنفسه على الميمنة فهزمها، واقتتل الناس قتالاً عظيماً، وأسر ابن أخي شُملة، وحمل رأسه إلى بغداد، فعُلّق بباب النّوبي، وهُدمت القلعة[1].

وفيها، في رمضان، توالت الأمطار في ديار بكر والجزيرة والموصل، فدامت أربعين يوماً ما رأينا الشمس فيها غير مرّتين، كلّ مرّة مقدار لحظة، وخربت المساكن وغيرها، وكثر الهدم، ومات تحته كثير من الناس، وزادت دجلة زيادةً عظيمةً، وكان أكثرها ببغداد، فإنها زادت على كل زيادة تقدمت منذ بُنيت بغداد بذراع وكسر، وخاف الناس الغرق، وفارقوا البلد، وأقاموا على شاطىء دجلة خوفاً من انفتاح القورج وغيره، وكانوا كلّما انفتح موضع[2] بادروا بسدّه، ونبع الماء في البلاليع، وخرّب كثيراً من الدُّور، ودخل الماء إلى البيمارستان العضُديّ، ودخلت السفن من الشبابيك التي له، فإنّها كانت قد تقلّعت، فمنّ الله تعالى على الناس بنقص الماء بعد أن أشرفوا على الغرق[3].

وفيها، في جمادى الأولى، كانت الفتنة ببغداد بين قُطْب الدين قايماز والخليفة، وسببها أن الخليفة أمر بإعادة عضد الدين بن رئيس الرؤساء إلى الوزارة، فمنع منه قُطْب الدين، وأغلق باب النوبي وباب العامّة، وبقيت دار الخليفة كالمحاصرة، فأجاب الخليفة إلى ترك وزارته، فقال قُطب الدين: لا أقنع إلا بإخراج عضُد الدين من بغداد؛ فأُمر بالخروج منها، فالتجأ[4] إلى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل، فأخذه إلى رِباطه وأجاره، ونقله إلى دار الوزير بقُطفتا، فأقام بها، ثمّ عاد إلى بيته في جُمادى الآخرة.

وفيها سقط الأمير أبو العباس أحمد بن الخليفة، وهو الذي صار خليفة، من قبّة عالية إلى أرض التاج ومعه غلام له اسمه نجاح، فألقى نفسه بعده، وسلِم ابن الخليفة

---

(١) المنتظم ١٨/ ٢٠٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٩ هـ) ص ٤٥.
(٢) في الأوربية: «موضعاً».
(٣) المنتظم ١٨/ ٢٠٤ ـ ٢٠٧، دول الإسلام ٢/ ٨٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٩ هـ) ص ٤٥ ـ ٤٦، البداية والنهاية ١/ ٢٧٣، تاريخ الخلفاء ٤٤٧.
(٤) في الأوربية: «فالتجى».

ونجاح[1]، فقيل لنجاح: لِمَ ألقيتَ نفسك؟ فقال: ما كنتُ أريد البقاء بعد مولاي؛ فرعى[2] له الأمير أبو العباس ذلك؛ فلمّا صار خليفة جعله شرابيّاً، وصارت الدولة جميعها بحكمه، ولَقّبه الملك الرحيم عزّ الدين، وبالغ في الإحسان إليه والتقديم له، وخدمه جميع الأمراء بالعراقِ والوزراء وغيرهم[3].

وفيها، في رمضان، وقع ببغداد بَرَدٌ كبار ما رأى الناس مثله، فهدم الدُّور، وقتل جماعة من الناس وكثيراً من المواشي، فُوزِنت بردة منها فكانت سبعة أرطال، وكان عامّته كالنّارَنْج يكسّر الأغصان. هكذا ذكره أبو الفرج بن الجَوزيّ في «تاريخه»[4]، والعهدة عليه.

وفيها كانت وقعة عظيمة بين المؤيّد، صاحب نيسابور، وبين شاه مازَندَران، قُتل فيها كثير من الطائفتين، فانهزم شاه مازندران، ودخل المؤيّد بلد الدّيلم وخرّبه وفتك بأهله وعاد عنه.

وفيها وقعت وقعة كبيرة بين أهل باب البصرة وأهل باب الكرْخ، وسببها أنّ الماء لما زاد سكر أهل الكرْخ سكْراً ردّ الماء عنهم، فغرق مسجد فيه شجرة، فانقلعت، فصاح أهل الكرخ: انقلعت الشجرة، لعن الله العشرة! فقامت الفتنة، فتقدّم الخليفة إلى علاء الدين تنامش بكفّهم، فمال على أهل باب البصرة لأنّه كان شيعياً، وأراد دخول المحلّة، فمنعه أهلها، وأغلقوا الأبواب ووقفوا على السور؛ وأراد إحراق الأبواب، فبلغ ذلك الخليفة فأنكره أشدّ إنكار، وأمر بإعادة تنامش، فعاد، ودامت الفتنة أسبوعاً، ثمّ انفصل الحال من غير توسّط سلطان.

وفيها عبر ملك الروم خليج القسطنطينيّة وقصد بلاد قلج أرسلان، فجرى بينهما حرب استظهر فيها المسلمون، فلمّا رأى ملك الروم عجزه عاد إلى بلده، وقد قُتل من عسكره وأُسر جماعة كثيرة.

---

(١) في الأوربية: «ونجا».

(٢) في الأوربية: «فرعا».

(٣) المنتظم ١٨/ ٢٠٣ (باختصار).

(٤) المنتظم ١٨/ ٢٠٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٩ هـ)، دول الإسلام ٢/ ٨٢، البداية والنهاية ١٢/ ٢٧٣، تاريخ الخميس ٢/ ٤٠٩، تاريخ الخلفاء ٤٤٧.

[الوفيات]

وفيها في جمادى الأولى، مات أحمد بن عليّ بن المعمّر بن محمد بن عبد الله أبو عبد الله العلويّ الحسينيّ نقيب العلويّين ببغداد، وكان يلقّب الظاهر، وسمع الحديث الكثير ورواه، وكان حسنة أهل بغداد.

وفيها تُوفي الحافظ أبو العلاء الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد بن محمد العطّار الهمذانيّ، سافر الكثير في طلب الحديث وقراءة القرآن واللغة، وكان من أعيان المحدّثين في زمانه، وكان له قبول عظيم ببلده عند العامّة والخاصّة.

وفيها توفي أبو محمد سعيد بن المبارك المعروف بابن الدّهان النّحْويّ البغدادي بالموصل، وكان إماماً في النحو، له التصانيف المشهورة منها «الغرّة» وغيرها.

٥٧٠

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

ذكر وصول أسطول صَقلية إلى مدينة الإسكندرية وانهزامه عنها

في هذه السنة، في المحرّم، ظفر أهل الإسكندرية وعسكر مصر بأسطول الفرنج من صقليّة، وكان سبب ذلك ما ذكرناه من [إرسال] أهل مصر إلى ملك الفرنج بساحل الشام، وإلى صاحب صقليّة، ليقصدوا ديار مصر ليثوروا بصلاح الدين ويخرجوه من مصر، فجهّز صاحب صقليّة أسطولاً كثيراً، عدّته مائتا شيني تحمل الرجّالة، وستّ وثلاثون طريدة تحمل الخيل، وستّة مراكب كبار تحمل آلة الحرب، وأربعون مركباً تحمل الأزواد، وفيها من الراجل خمسون ألفاً، ومن الفرسان ألف وخمسمائة، منها خمسمائة تركبلي[1].

وكان المقدّم عليهم ابن عم صاحب صقليّة، وسيّره إلى الإسكندرية من ديار مصر، فوصلوا إليها في السادس والعشرين من ذي الحجّة سنة تسع وستّين، على حين غفلة من أهلها وطمأنينة، فخرج أهل الإسكندريّة بسلاحهم وعدّتهم ليمنعوهم من النّزول، وأبعدوا عن البلد، فمنعهم الوالي عليهم من ذلك، وأمرهم بملازمة السور، ونزل الفرنج إلى البرّ مما يلي البحر والمنارة وتقدّموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمجانيق وقاتلوا أشدّ قتال، وصبر لهم أهل البلد، ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل، ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحُسن سلاحهم ما راعهم.

وسُيّرت الكتب بالحال إلى صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم، ودام القتال أوّل يوم إلى آخر النهار، ثم عاود الفرنج القتال اليوم الثاني، وجدّوا، ولازموا الزَّحف، حتى وصلت الدبابات إلى قرب السور، ووصل ذلك اليوم من العساكر

---

(١) في النسخة رقم ٧٤٠ «تركلي»، وفي الباريسية: «بركلي».

الإسلاميّة كلّ من كان في أقطاعه، وهو قريب من الإسكندرية، فقويت بهم نفوس أهلها، وأحسنوا القتال والصبر، فلمّا كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كلّ جانب، وهم غارّون، وكثُر الصياح من كل الجهات، فارتاع الفرنج واشتدّ القتال، فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها، وصبروا للقتال فأنزل الله نصره عليهم، وظهرت أماراته، ولم يزالوا مباشرين القتال إلى آخر النهار، ودخل أهل البلد إليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظَّفَر وقوّتهم، وفشل الفرنج وفتور حربهم، وكثرة القتل والجراح في رجّالتهم.

وأما صلاح الدين فإنه لما وصله الخبر سار بعساكره، وسيّر مملوكاً له ومعه ثلاث[1] جنائب ليجدّ السير عليها إلى الإسكندرية يبشّر بوصوله، وسيّر طائفة من العسكر إلى دمياط خوفاً عليها، واحتياطاً لها، فسار ذلك المملوك، فوصل الإسكندريّة من يومه وقت العصر، والنّاس قد رجعوا من القتال، فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين والعساكر مسرعين، فلما سمع الناس ذلك عادوا إلى [القتال، وقد][2] زال ما بهم من تعب وألم الجراح، وكلّ منهم يظنّ أن صلاح الدين معه، فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله.

وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين في عساكره، فسُقط في أيديهم، وازدادوا تعباً وفتوراً، فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام، ووصلوا إلى خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة، وكثُر القتل في رجّالة الفرنج، فهرب كثير منهم إلى البحر، وقرّبوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها، فسلم بعضهم وركب، وغرق بعضهم، وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الفرنج فغرقت، فخاف الباقون من ذلك، فولّوا هاربين، واحتمى ثلاثمائة من فرسان الفرنج على رأس تلّ، فقاتلهم المسلمون إلى بُكرة، ودام القتال إلى أن أضحى النهار، فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتيلٍ وأسير، وكفى الله المسلمين شرّهم، وحاق بالكافرين مكرُهم[3].

---

(١) في الأوربية: «ثلاثة».

(٢) من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

(٣) النوادر السلطانية ٤٨ ـ ٤٩، سنا البرق الشامي ١/١٦٩ ـ ١٧٥، مفرّج الكروب ٢/١٢ ـ ١٤، الروضتين ج ١ ق ٢/٥٩٨ ـ ٦٠٠، الدر المطلوب ٤٩، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٩ هـ) ص ٥٢ =

ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر

وفي أول هذه السنة خالف الكنز بصعيد مصر، واجتمع إليه من رعيّة البلاد والسودان والعرب وغيرهم خلق كثير، وكان هناك أمير من الصلاحيّة في أقطاعه، وهو أخو الأمير أبي الهيجاء السمين، فقتله الكنز، فعظُم قتله على أخيه، وهو من أكبر الأمراء وأشجعهم، فسار إلى قتال الكنز، وسيّر معه صلاح الدين جماعة من الأمراء، وكثيراً من العسكر، ووصلوا إلى مدينة طَوْد، فاحتمت عليهم، فقاتلوا مَن بها، وظفروا بهم، وقتلوا منهم كثيراً، وذلّوا بعد العزّ وقُهروا واستكانوا.

ثم سار العسكر بعد فراغهم من طود إلى الكنز، وهو في طغيانه يَعْمه، فقاتلوه، فقُتل هو ومَن معه من الأعراب وغيرهم، وأمنت بعده البلاد واطمأنّ أهلها[1].

ذكر مُلك صلاح الدين دمشق

في هذه السنة، سلخ ربيع الأول، ملك صلاح الدين يوسف بن أيّوب مدينة دمشق. وسبب ذلك أن نور الدين لمّا مات وملك ابنه الملك الصالح بعده كان بدمشق، وكان سعد الدين كمشتكين قد هرب من سيف الدين غازي إلى حلب، كما ذكرناه، فأقام بها عند شمس الدين بن الداية، فلمّا استولى سيف الدين على البلاد الجزريّة خاف ابن الداية أن يُغير إلى حلب فيملكها، فأرسل سعد الدين إلى دمشق ليحضر الملك الصالح ومعه العساكر إلى حلب، فلمّا قارب دمشق سيّر إليه شمس الدين محمد بن المقدّم عسكراً فنهبوه، وعاد منهزماً إلى حلب، فأخلف عليه ابن الداية عوض ما أُخذ منه، ثمّ إنّ الأمراء الذين بدمشق نظروا في المصلحة، فعلموا أن مسيره إلى حلب أصلحُ للدولة من مقامه بدمشق، فأرسلوا إلى ابن الداية يطلبون إرسال سعد الدين ليأخذ الملك الصالح، فجهّزه وسيّره، وعلى نفسها[2] بَراقِش تجني، فسار إلى

= ـ ٥٣، البداية والنهاية ١٢/ ٢٨٧، عقد الجمان ١٢/ ١٩٤ ب، ١٩٥ أ.

(١) سنا البرق الشامي ١/ ١٧٥ ـ ١٧٦، النوادر السلطانية ٤٧ ـ ٤٨، مفرّج الكروب ٢/ ١٦ ـ ١٧، مسالك الأبصار ٢٧/ ورقة ٣٢ أ، البداية والنهاية ١٢/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨، مرآة الجنان ٣/ ٤٤٢، عقد الجمان ١٢/ ورقة ١٩٥ ب و٢٠٨ أ، ب. و«الكنز» هو كنز الدولة حاكم أسوان. (البيان والإعراب للمقريزي ص ٥٠).

(٢) في الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ «نفسها».

دمشق في المحرّم من هذه السنة، وأخذ الملك الصالح وعاد إلى حلب، فلمّا وصلوا إليها قبض سعد الدين على شمس الدين بن الداية وإخوته، وعلى رئيس بن الخشّاب رئيس حلب ومقدّم الأحداث بها، ولولا مرض شمس الدين بن الداية لم يتمكّن من ذلك.

واستبد سعد الدين بتدبير الملك الصالح، فخافه ابن المقدّم وغيره من الأمراء الذين بدمشق وقالوا: إذا استقرّ أمر حلب أخذ الملك الصالح وسار به إلينا، وفعل مثل ما فعل بحلب؛ وكاتبوا سيف الدين غازي صاحب الموصل ليعبر الفرات إليهم ليسلّموا إليه دمشق، فلم يفعل وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها ويقصده ابن عمّه وعسكر حلب من وراء ظهره فيهلك. أشار عليه بهذا زلفندار عزّ الدين، والجبان يُقدّر البعيد من الشرّ قريباً، ويرى الجبن حزماً، كما قال:

يـرى الجبنـاءُ أنّ الجبـنَ حَـزْمٌ   وتلـكَ طَبيعـةُ الـرّجـلِ الجبـانِ

فلما أشار عليه بهذا الرأي زلفندار قَبِلَهُ وامتنع من قصد دمشق، وراسل سعد الدين والملك الصالح وصالحهما على ما أخذه من البلاد، فلمّا امتنع عن العبور إلى دمشق عظُم خوفهم، وقالوا: حيث صالحهم سيف الدين لم يبق لهم مانع عن المسير إلينا؛ فكاتبوا حينئذٍ صلاح الدين يوسف بن أيوب، صاحب مصر، واستدعوه ليملّكوه عليهم، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدّم، ومن أشبه أباه فما ظلم، وقد ذكرنا مُخامرة أبيه في تسليم سِنجار سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

فلما وصلت الرسل إلى صلاح الدين بذلك لم يلبث، وسار جريدةً في سبع مائة فارس والفرنج في طريقه، فلم يُبالِ بهم، فلمّا وطىء أرض الشام قصد بُصرى، وكان [بها] حينئذٍ صاحبها وهو من جملة من كاتبه، فخرج ولقيه، فلمّا رأى قلّة من معه خاف على نفسه، واجتمع بالقاضي الفاضل وقال: ما أرى معكم عسكراً، وهذا بلد عظيم لا يُقصد بمثل هذا العسكر، ولو منعكم من به ساعة من النهار أخذكم أهل السواد، فإن كان معكم مالٌ سهل الأمر. فقال: معنا مالٌ كثيرٌ يكون خمسين ألف دينار؛ فضرب صاحب بُصرى على رأسه وقال: هلكتم وأهلكتمونا؛ وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار.

ثم سار صلاح الدين إلى دمشق فخرج كلّ من بها من العسكر إليه، فلقوه

وخدموه، ودخل البلد، ونزل في دار والده المعروفة بدار العقيقي، وكانت القلعة بيد خادم اسمه رَيحان، فأحضر صلاح الدين كمال الدين بن الشّهرزوريّ، وهو قاضي البلد والحاكم في جميع أموره من الديوان والوقف وغير ذلك، وأرسله إلى رَيحان ليسلّم القلعة إليه، وقال: أنا مملوك الملك الصالح، وما جئتُ إلا لأنصره وأخدمه، وأعيد البلاد التي أُخذت منه إليه؛ وكان يخطب له في بلاده كلّها، فصعد كمال الدين إلى ريحان، ولم يزل معه حتى سلّم القلعة، فصعد صلاح الدين إليها، وأخذ ما فيها من الأموال، وأخرجها واتّسع بها وثبت قدمه، وقويت نفسه، وهو مع هذا يُظهر طاعة الملك الصالح، ويخاطبه بالمملوك، والخطبة والسكّة باسمه[1].

ذكر مُلك صلاح الدين مدينتي حِمص وحماة

لما استقرّ مُلك صلاح الدين لدمشق، وقرّر أمرها، استخلف بها أخاه سيف الإسلام طُغْدُكين[2] بن أيوب، وسار إلى مدينة حِمص مستهلّ جُمادى الأولى، وكانت حمص وحماة قلعة بَعرين وسَلَميّة وتلّ خالد والرُّها من بلد الجزيرة في أقطاع الأمير فخر الدين مسعود الزَّعفرانيّ، فلمّا مات نور الدين لم يمكنه المقام بها لسوء سيرته في أهلها، ولم يكن له في قلاع هذه البلاد حكم إنما فيها وُلاة لنور الدين. وكان بقلعة حمص والٍ يحفظها، فلما نزل صلاح الدين على حمص، حادي عشر الشهر المذكور، راسل من فيها بالتسليم، فامتنعوا، فقاتلهم من الغد، فملك البلد وأمّن أهله، وامتنعت عليه القلعة وبقيت ممتنعة إلى أن عاد من حلب، على ما نذكره إن شاء الله، وترك بمدينة حمص من يحفظها، ويمنع من بالقلعة من التصرّف، وأن تصعد إليهم ميرة[3].

وسار إلى مدينة حماة، وهو في جميع أحواله لا يُظهر إلاّ طاعة الملك الصالح بن نور الدين، وأنّه إنما خرج لحفظ بلاده[4] عليه من الفرنج، واستعادة ما

---

(١) النوادر السلطانية ٥٠، سنا البرق الشامي ١/١٧٦ ـ ١٧٧، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/٣٢٦ ـ ٣٢٨، الروضتين ج ١ ق ٢/٦٠٣ ـ ٦٠٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٠ هـ) ص ٥٧ ـ ٥٨، البداية والنهاية ١٢/٢٢٨.

(٢) ويقال: «طغتكين».

(٣) النوادر السلطانية ٥٠، سنا البرق الشامي ١/٤١٧، النوادر السلطانية ٥٠، مفرّج الكروب ٢/٢٢ ـ ٢٣.

(٤) في الأوربية: «بلاد».

أخذه سيف الدين صاحب الموصل من البلاد الجزريّة، فلمّا وصل إلى حماة ملك المدينة مُستهلّ جُمادى الآخرة، وكان بقلعتها الأمير عزّ الدين جُورديك، وهو من المماليك النوريّة، فامتنع من التسليم إلى صلاح الدين، فأرسل إليه صلاح الدين يعرّفه ما هو عليه من طاعة الملك الصالح، وإنما يريد حفظ بلاده عليه، فاستحلفه جُورديك على ذلك فحلف وسيّره إلى حلب في اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح، وفي إطلاق شمس الدين عليّ وحسن وعثمان أولاد الداية من السجن، فسار جُورديك إلى حلب، واستخلف بقلعة حماة أخاه ليحفظها، فلمّا وصل جُورديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه، فلما علم أخوه بذلك سلّم القلعة إلى صلاح الدين فملكها[١].

ذكر حصر صلاح الدين حلب وعوده عنها وملكه قلعة حمص وبعلبك

لما ملك صلاح الدين حماة سار إلى حلب فحصرها ثالث جُمادى الآخرة، فقاتله أهلها، وركب الملك الصالح، وهو صبيّ عمره اثنتا[٢] عشرة سنة، وجمع أهل حلب وقال لهم: قد عرفتم إحسان أبي إليكم ومحبّته لكم وسيرته فيكم، وأنا يتيمكم، وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدي إليه يأخذ بلدي ولا يراقب الله تعالى، ولا الخلق؛ وقال من هذا كثيراً وبكى فأبكى الناس، فبذلوا له الأموال والأنفس، واتّفقوا على القتال دونه، والمنع عن بلده، وجدّوا في القتال، وفيهم شجاعة، قد ألفوا الحرب واعتادوها، حيث كان الفرنج بالقرب منهم، فكانوا يخرجون ويقاتلون صلاح الدين عند جبل جوشن[٣]، فلا يقدر على القرب من البلد.

وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدّم الإسماعيلية، وبذل له أموالاً كثيرة ليقتلوا صلاح الدين، فأرسلوا جماعة منهم إلى عسكره، فلما وصلوا رآهم أمير اسمه

---

(١) التاريخ الباهر ١٧٦، سنا البرق الشامي ١/١٧٦ ـ ١٨٣، النوادر السلطانية ٥٠ ـ ٥٢، مفرّج الكروب ٢/١٧ ـ ٢٠، الروضتين ج ١ ق ٢/٦٠٢ ـ ٦١٤، تاريخ مختصر الدول ٢١٦، تاريخ الزمان ١٩٠، المغرب في حلى المغرب ١٤٤ ـ ١٤٦، زبدة الحلب ٣/١٤ ـ ٢٢، المختصر في أخبار البشر ٣/٥٦ ـ ٥٧، العبر ٤/٢٠، دول الإسلام ٢/٨٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٠ هـ) ص ٥٨، تاريخ ابن الوردي ٢/٨٣ ـ ٨٤، مرآة الجنان ٣/٣٩٢، البداية والنهاية ١٢/٢٨٧ ـ ٢٩٠، تاريخ ابن خلدون ٥/٢٥٥ ـ ٢٥٦، السلوك ج ١ ق ١/٥٨ ـ ٥٩، شفاء القلوب ٨٤ ـ ٨٧، تاريخ ابن سباط ١/١٠٤.

(٢) في الأوربية: «اثنا».

(٣) في طبعة صادر ١١/٤١٩ «حوش» بالحاء المهملة وهو غلط.

خمارتِكين، صاحب قلعة أبي قُبَيس، فعرفهم لأنه جارهم في البلاد، كثير الاجتماع بهم والقتال لهم، فلما رآهم قال لهم: ما الذي أقدمكم وفي أيّ شيء جئتم؟ فجرحوه جراحات مثخنة، وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله، فقُتل دونه، وقاتل الباقون من الإسماعيلية، فقتلوا جماعة ثم قُتلوا[١].

وبقي صلاح الدين محاصراً لحلب إلى سلخ جُمادى الآخرة، ورحل عنها مستهلّ رجب، وسبب رحيله أنّ القُمّص ريمند الصّنجيلي، صاحب طرابلس، كان قد أسره نور الدين على حارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وبقي في الحبس إلى هذه السنة، فأطلقه سعد الدين بمائة ألف وخمسين ألف دينار صُورَيِّة وألف أسير، فلما وصل إلى بلده اجتمع الفرنج عليه يُهنّئونه بالسلامة، وكان عظيماً فيهم من أعيان شياطينهم، فاتّفق أنّ مُرّي[٢] ملك الفرنج، لعنه الله، مات أوّل هذه السنة، وكان أعظم ملوكهم شجاعة وأجودهم رأياً ومكراً ومكيدةً، فلما تُوفي خلّف ابناً مجذوماً عاجزاً[٣] عن تدبير الملك، فملّكه الفرنج صورة لا معنى تحتها، وتولّى القُمّص ريمُنْد تدبير المُلك، وإليه الحلّ والعقد، عن أمره يصدرون، فأُرسل إليه من بحلب يطلبون منه أن يقصد بعض البلاد التي بيد صلاح الدين ليرحل عنهم، فسار إلى حمص ونازلها سابع رجب، فلما تجهز لقصدها سمع صلاح الدين الخبر فرحل عن حلب، فوصل إلى حماة ثامن رجب، بعد نزول الفرنج على حمص بيوم، ثم رحل إلى الرَّسْتن، فلما سمع الفرنج بقربه رحلوا عن حمص، ووصل صلاح الدين إليها، فحصر القلعة إلى أن ملكها في الحادي والعشرين من شعبان من السنة، فصار أكثر الشام بيده[٤].

ولما ملك حمص سار منها إلى بعلبك، وبها خادم اسمه يُمن، وهو والٍ عليها من أيام نور الدين، فحصرها صلاح الدين، فأرسل يُمن يطلب الأمان له ولمن عنده،

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢/ ٦١٠ ـ ٦١١ و٦١٣ و٦١٤، مفرّج الكروب ٢/ ٢٤، سنا البرق الشامي ١/ ١٨١، البداية والنهاية ١٢/ ٢٨٨، تاريخ ابن سباط ١/ ١٤٠، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٣٢٨، المغرب في حلى المغرب ١٤٥.

(٢) هو «أملريك» ملك بيت المقدس.

(٣) هو «بلدوين الرابع».

(٤) سنا البرق الشامي ١/ ١٨١ ـ ١٨٢، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٧، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٧٦، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٠ هـ) ص ٥٩، مرآة الجنان ٣/ ٣٩٢، تاريخ طرابلس (تأليفنا) ١/ ٥٢١ ـ ٥٢٢.

فأمّنهم صلاح الدين، وسلم القلعة رابع شهر رمضان من السنة المذكورة[١].

ذكر حصر سيف الدين أخاه عماد الدين بسنجار

لما ملك صلاح الدين دمشق وحمص وحماة كتب الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين إلى ابن عمه سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود، يستنجده على صلاح الدين، ويطلب أن يعبر إليه ليقصدوا صلاح الدين ويأخذوا البلاد منه، فجمع سيف الدين عساكره، وكاتب أخاه عماد الدين زنكي، صاحب سنجار، يأمره أن ينزل إليه بعساكره ليجتمعا على المسير إلى الشام، فامتنع من ذلك.

وكان صلاح الدين قد كاتب عماد الدين وأطمعه في الملك لأنه هو الكبير، فحمله الطمع على الامتناع على أخيه، فلما رأى سيف الدين امتناعه جهّز أخاه عز الدين مسعوداً في عسكر كثير، هو معظم عسكره، وسيّره إلى الشام، وجعل المقدّم على العسكر مع أخيه عز الدين محمود، ويلقب أيضاً زلفندار، وجعله المدبر للأمر، وسار سيف الدين إلى سنجار فحصرها في شهر رمضان وقاتلها، وجد في القتال، وامتنع عماد الدين بها، وأحسن حفظها والذّب عنها، فدام الحصار عليها، فبينما هو يحاصرها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذي مع أخيه عزّ الدين مسعود من صلاح الدين، فراسل حينئذٍ أخاه عماد الدين، وصالحه على ما بيده، ورحل إلى الموصل، وثبت قدم صلاح الدين بعد هذه الهزيمة، وخافه الناس، وتردّدت الرسل بينه وبين سيف الدين (غازي في الصلح)[٢]، فلم يستقرّ حال[٣].

ذكر انهزام عسكر سيف الدين من صلاح الدين وحصره مدينة حلب

في هذه السنة سار عسكر سيف الدين مع أخيه عز الدين وعزّ الدين زلفندار إلى حلب، واجتمع معهما عساكر حلب، وساروا كلّهم إلى صلاح الدين ليحاربوه، فأرسل

---

(١) سنا البرق الشامي ١/١٨٣، مفرّج الكروب ٢/٢٩ ـ ٣٠، الروضتين ج ١ ق ٢/٦٣١، زبدة الحلب ٢/٢٢ ـ ٢٣، نهاية الأرب ٢٨/٣٧٦، المختصر في أخبار البشر ٣/٥٧، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٠ هـ) ص ٥٩، مرآة الجنان ٣/٣٩٢.

(٢) من (أ).

(٣) النوادر السلطانية ٥٠ ـ ٥١، سنا البرق الشامي ١/١٨٦ ـ ١٩١، مفرّج الكروب ٢/٣١ ـ ٣٣، زبدة الحلب ٣/٢٣ ـ ٢٦، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٠.

صلاح الدين إلى سيف الدين يبذل تسليم حمص وحماة، وأن يقرّ بيده مدينة دمشق، وهو فيها نائب الملك الصالح، فلم يُجب إلى ذلك، وقال: لا بدّ من تسليم جميع ما أخذ من بلاد الشام والعود إلى مصر.

وكان صلاح الدين يجمع عساكره ويتجهز للحرب، فلما امتنع سيف الدين من إجابته إلى ما بذل سار في عساكره إلى عز الدين مسعود وزلفندار[١]، فالتقوا تاسع عشر رمضان، بالقرب من مدينة حماة، بموضع يقال له قُرون حماة، وكان زلفندار جاهلاً بالحروب والقتال، غير عالم بتدبيرها، مع جُبن فيه، إلاّ أنه قد رُزق سعادةً وقبولاً من سيف الدين، فلما التقى الجمعان لم يثبت العسكر السيفيّ، وانهزموا لا يلوي أخ على أخيه، وثبت عز الدين أخو سيف الدين بعد انهزام أصحابه، فلما رأى صلاح الدين ثباته قال: إما أن هذا أشجع الناس، أو أنه لا يعرف الحرب؛ وأمر أصحابه بالحملة عليه، فحملوا فأزالوه عن موقفه، وتمّت الهزيمة عليهم.

وتبعهم صلاح الدين وعسكره حتى جازوا معسكرهم، وغنموا منهم غنائم كثيرة، وآلة، وسلاحاً عظيماً، ودوابّ فارهة، وعادوا بعد طول البيكار مستريحين، وعاد المنهزمون إلى حلب، وتبعهم صلاح الدين، فنازلهم بها محاصراً لها ومقاتلاً، وقطع حينئذٍ خطبة الملك الصالح بن نور الدين، وأزال اسمه عن السكّة في بلاده، ودام محاصراً لهم؛ فلما طال الأمر عليهم راسلوه في الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها، فأجابهم إلى ذلك، وانتظم[٢] الصلح، ورحل عن حلب في العشر الأول من شوّال ووصل إلى حماة، ووصلت إليه[٣] بها خلع الخليفة مع رسوله[٤].

---

(١) في (أ): «زلفاندار».

(٢) في الأوربية: «وانتضم».

(٣) في الأوربية: «إليها».

(٤) سنا البرق الشامي ١/ ١٧٦ ـ ١٨٣، النوادر السلطانية ٥٠ ـ ٥٢، مفرّج الكروب ٢/ ١٧ ـ ٢٠، زبدة الحلب ٣/ ١٤ ـ ٢٢، التاريخ الباهر ١٧٦ ـ ١٧٧، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٦٠٢ ـ ٦١٤، تاريخ مختصر الدول ٢١٦،، تاريخ الزمان ١٩٠، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٦ ـ ٥٧، المغرب في حلى المغرب ١٤٤ ـ ١٤٦، العبر ٤/ ٢١٠، دول الإسلام ٢/ ٨٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٠ هـ) ص ٥٩، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٣ ـ ٨٤ مرآة الجنان ٣/ ٣٩٢، البداية والنهاية ١٢/ ٢٨٧ ـ ٢٩٠، مسالك الأبصار ٢٧/ ورقة ٣٣ أ، ب، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦، السلوك ج ١ ق ١/ ٥٨ =

ذكر ملك صلاح الدين قلعة بعرين

في هذه السنة، في العشر الأوّل من شوّال، ملك صلاح الدين قلعة بعرين من الشام، وكان [صاحبها] فخر الدين مسعود بن الزعفرانيّ، وهو من أكابر الأمراء النوريّة، فلما رأى قوة صلاح الدين نزل منها، واتصل بصلاح الدين، وظنّ أنه يكرمه ويشاركه في ملكه، ولا ينفرد عنه بأمر مثل ما كان مع نور الدين، فلم ير من ذلك شيئاً، ففارقه، ولم يكن بقي له من إقطاعه الذي كان له في الأيام النورية غير بَعرين ونائبه بها، فلما صالح صلاح الدين الملك الصالح بحلب، عاد إلى حماة وسار منها إلى بعرين، وهي قريبة منها، فحصرها ونصب عليها المجانيق، وأدام قتالها، فسلّمها واليها بالأمان، فلما ملكها عاد إلى حماة، فأقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارميّ، وأقطع حمص ناصر الدين محمد ابن عمّه شِيركوه، وسار منها إلى دمشق فدخلها أواخر شوال من السنة[1].

ذكر مُلك البهلوان مدينة تبرِيز

في هذه السنة ملك البهلوان بن إيلدكز مدينة تبريز، وهي من جملة بلاد آقسنقر الأحمديلي، وسبب ذلك أنّ البهلوان سار إلى مَراغة وحصرها، وكان ابن آقسنقر الأحمديلي صاحبها قد مات، ووصّى بالمُلك لابنه فَلَك الدين، فقصده البهلوان، ونزل على قلعة رويين دُز وحصرها فامتنعت عليه، فتركها، وحصر مَراغة، وسيّر أخاه قزل أرسلان في جيش إلى مدينة تبريز فحصرها أيضاً.

وكان البهلوان يقاتل أهل مَراغة، فظفروا بطائفة من عسكره، فخلع عليهم صدر الدين قاضي مَراغة، وأطلقهم، فحسن ذلك عند البهلوان، وشرع القاضي في الصلح على أن يسلّموا تبريز إلى البهلوان، فأجيب إلى ذلك، واستقرّت القاعدة عليه، وحلف

= ـ ٥٩، شفاء القلوب ٨٤ ـ ٨٧، عقد الجمان ١٢/ ١٩٧ أ ـ ١٩٨ ب، تاريخ ابن سباط ١/ ١٤٠.

(١) سنا البرق الشامي ١/ ١٩٢، مفرّج الكروب ٢/ ٣٤، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٦٤٠، زبدة الحلب ٣/ ٢٤، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٣٢٩، المغرب في حلى المغرب ١٤٦، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٧، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٧٨، دول الإسلام ٢/ ٨٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٠ هـ) ص ٦١، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٤، تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٥٦، السلوك ج ١ ق ١/ ٦٠، شفاء القلوب ٨٧، تاريخ ابن سباط ١/ ١٤١.

كلّ واحد منهما لصاحبه، وتسلّم البهلوان تبريز وأعطاها أخاه قزل أرسلان، ورحل عن مراغة[1].

ذكر وفاة شُملة

في هذه السنة مات شُملة التُركماني، صاحب خُوزستان، وكان قد كثُرت ولايته، وعظُم شأنه، وبنى عدّة حصون، وبقي كذلك زيادة على عشرين سنة.

وكان سبب موته أنه قصد بعض التُّركمان، فعلموا بذلك، فاستعانوا بشمس الدين البهلوان بن إيلدكز، صاحب عراق العجم، فسيّر إليهم جيشاً، فاقتتلوا فأصاب شُملة سهم، ثمّ أُخذ أسيراً وولده وابن أخيه، وتُوفي بعد يومين، وهو من التُّركمان الأقشريّة، ولمّا مات ملك ابنه بعده.

ذكر هرب قطب الدين قايماز من بغداد

في هذه السنة، في شوّال، سيّر علاء الدين تُنامُش[2]، وهو من أكابر الأمراء ببغداد، وهو ابن أحمد قُطب الدين قايماز زوج أخته، عسكراً إلى الغرّاف[3]، فنهبوا أهله، وبالغوا في أذاهم، فجاء منهم جماعة إلى بغداد واستغاثوا، فلم يغاثوا لضعف الخليفة مع قايماز وتنامش، وتحكّمهما عليه، فقصدوا جامع القصر واستغاثوا فيه، ومنعوا الخطيب، وفاتت الصلاة أكثر الناس، فأنكر الخليفة ما جرى، فلم يلتفت قطب الدين وتنامش إلى ما فعل، واحتقروه، فلا جَرَم لم يمهلهم الله تعالى لاحتقارهم الدعاء وازدرائهم أهله.

فلما كان خامس ذي القعدة قصد قُطب الدين قايماز أذى ظهير الدين بن العطّار، وكان صاحب المخزن، وهو خاص الخليفة، وله به عناية تامّة، فلم يُراعِ[4] الخليفة في صاحبه، فأرسل إليه يستدعيه ليحضر عنده، فهرب، فأحرق قُطب الدين داره،

---

(١) سنا البرق الشامي ١/١٩٦، تاريخ مختصر الدول ٢١٦، المختصر في أخبار البشر ٣/٥٧، دول الإسلام ٢/٨٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٠ هـ) ص ٦٣، تاريخ ابن الوردي ٢/٨٥، تاريخ ابن سباط ١/١٤١.

(٢) في تاريخ الإسلام، والمنتظم: «تتامش» بتاءين.

(٣) الغرّاف بالتشديد. على وزن فعّال. وهو نهر كبير تحت واسط بينها وبين البصرة. (معجم البلدان ٤/١٩٠).

(٤) في الأوربية: «فلم يراعي».

وحالف الأمراء على المساعدة والمظاهرة له، وجمعهم، وقصد دار الخليفة لعلمه أنّ ابن العطار فيها، فلما علم الخليفة ذلك ورأى الغلبة صعِد إلى سطح داره وظهر للعامة وأمر خادماً فصاح واستغاث، وقال للعامة: مالُ قُطب الدين لكم ودمه لي؛ فقصد الخلق كلّهم دار قطب الدين للنهب، فلم يمكنه المقام لضيق الشوارع وغلبة العامة، فهرب من داره من باب فتحه في ظهرها، لكثرة الخلق على بابها، وخرج من بغداد ونُهبت داره، وأُخذ منها من الأموال ما لا يُحَدّ ولا يُحْصَى، فروِيَ فيها من التنعّم ما ليس لأحد مثله، فمن جملة ذلك أنّ بيت الطهارة الذي كان له فيه سلسلة ذهب من السقف إلى محاذي وجه القاعد على الخلا، وفي أسفلها كُرة كبيرة ذهب، مخرّمة، محشُوّة بالمسك والعنبر ليشمّها إذا قعد، فتشبّث بها إنسان وقطعها وأخذها، ودخل بعض الصعاليك فأخذ عدّة أكياس مملوءة دنانير.

وكان الأقوياء قد وقفوا على الباب يأخذون ما يخرج به الناس، فلما أخذ ذلك الصعلوك الأكياس قصد المطبخ فأخذ منه قِدراً مملوءة طبيخاً، وألقى الأكياس فيها وحملها على رأسه وخرج بها، والناس يضحكون منه، فيقول: أنا أريد شيئاً أطعمه عيالي اليوم؛ فنجا بما معه، فاستغنى بعد ذلك، فظهر المال، ولم يبق من نعمة قُطب الدين في ساعةٍ واحدة قليل ولا كثير.

ولمّا خرج من البلد تبعه تنامش وجماعة من الأمراء، فنُهبت دورهم أيضاً، وأُخذت أموالهم وأُحرق أكثرها، وسار قطب الدين إلى الحلة ومعه الأمراء، فسيّر الخليفة إليه صدر الدين شيخ الشيوخ، فلم يزل به يخدعه حتى سار عن الحِلة إلى الموصل على البرّ، فلحقه ومن معه عطشٌ عظيمٌ فهلك أكثرهم من شدّة الحرّ والعطش. ومات قُطب الدين قبل وصوله إلى الموصل فحُمل ودُفن بظاهر باب العِمادي، وقبره مشهور هناك.

وهذا عاقبة عصيان الخليفة، وكُفران الإحسان، والظلم، وسوء التدبير، فإنه ظلم أهل العراق، وكفر إحسان الخليفة الذي كان قد غمره، ولو أقام بالحلة وجمع العساكر وعاود بغداد لاستولى على الأمور كلها كما كان، فإن عامة بغداد كانوا يريدونه، وكان قوي بالإستيلاء على البلاد فأطاعوه.

ولما مات في ذي الحجة وصل علاء الدين تُنامش إلى الموصل، فأقام مُديدة، ثم أمره الخليفة بالقدوم إلى بغداد، فعاد إليها، وبقي بها إلى أن مات بغير إقطاع،

وكان هذا آخر أمرهم[١].

ولما أقام قُطب الدين بالحِلّة امتنع الحاجّ من السفر، فتأخّروا إلى أن رحل عنها، فدخلوا من الكوفة إلى عَرَفات في ثمانية عشر يوماً، وهذا ما لم يُسمع بمثله، وفات كثيراً[٢] منهم الحجُّ[٣].

ولما هرب قُطب الدين خلع الخليفة على عضُد الدين الوزير وأعيد [إلى] الوزارة.

قال بعض الشعراء في قُطْب الدين وتنامش هذه الأبيات:

إنْ كنتَ مُعتبراً بمُلكٍ زائلٍ ... وحَوادثٍ عَنَقيّةِ الإدلاجِ

فدَعِ العَجائبَ والتّواريخَ الأولى ... وانظُرْ إلى قايمازَ وابنِ قَمَاجِ

عطَفَ الزّمانُ علَيهِما فسَقاهما ... من كأسِهِ صِرْفاً بغيرِ مِزاجِ

فتبدَّلُوا بعدَ القُصُور وظلّها ... ونَعيمِها بمَهامِهٍ وفِجَاجِ

فليَحذَرِ الباقُونَ مِنْ أمثالِها ... نكبَاتِ دَهرٍ خائنٍ مِزعاجِ

وكان قُطب الدين كريماً، طَلْقَ الوجه، مُحباً للعدل والإحسان، كثير البذل للمال. والذي كان جرى منه إنّما كان يحمله عليه تنامش ولم يكن بإرادته.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة مات زعيم الدين صاحب المخزن، واسمه يحيى بن عبد الله[٤] بن محمد بن المعمّر بن جعفر أبو الفضل، وحجّ بالناس عدّة سنين، وإليه الحكم في الطريق، وناب عن الوزارة، وتنقّل في هذه الأعمال أكثر من عشرين سنة، وكان يحفظ القرآن.

---

(١) المنتظم ١٠/٢٥٣ ـ ٢٥٤، (١٨/٢١٥)، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٠ هـ) ص ٥٦ ـ ٥٧، البداية والنهاية ١٢/٢٩١.

(٢) في الأوربية: «كثير».

(٣) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٠ هـ) ص ٦٣، وفيه: «ومات كثير منهم».

(٤) انظر عن (يحيى بن عبد الله) في: المنتظم ١٨/٢١٧ رقم ٤٣٠٩ وفيه: «يحيى بن جعفر» وشذرات الذهب ٤/٢٣٨.